

الفصل التاسع

في المدينة

علي (ع) في المدينة: المهمات الجديدة * الدلالات العلمية للنصوص * مقدمات حول كتابة القرآن الكريم *
علي (ع) وجمع القرآن الكريم: 1- كاتب الوحي (ع). 2- كتاب آخرون. 3- العلة في تعدد كتاب
الوحي. 4- فنية كتابة القرآن. 5- فلسفة كتابة الوحي.

علي (ع) في المدينة: المهمات الجديدة

اهتم امير المؤمنين (ع) وهو في المدينة بالقرب من رسول الله (ص)، بالقرآن الكريم أيما اهتمام. وقد كان ذلك الاهتمام غير منفك عن اهتمام آخر وهو اهتماماته الحربية في المعارك والغزوات التي ابقت شوكة الدين قوية فعالة عجز المشركون عن كسرها . ولكن الاهتمام بالقرآن الكريم كان اهتماماً استثنائياً، فلا عجب ان يقول (ع): «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت وأين نزلت، وأن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»¹. واهتم بالخصوص بـ «جمع القرآن على عهد رسول الله (ص)»² حتى يُصان من التحريف بعد وفاة خاتم الانبياء (ص).

وقد كان النبي (ص) يبذل الوقت والجهد لتعليم علي (ع) معاني القرآن الكريم وأسراره وخفيايه. وكان الامام (ع) يجهر بذلك مصرحاً: «ما نزلت على رسول الله (ص) آية من القرآن الا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله عزّ وجلّ ان يعلمني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله عزّ وجلّ ولا علماً أملاه عليّ فكتبته وما ترك شيئاً علمه الله عزّ وجلّ من حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، وما كان او يكون من طاعة او معصية الا علمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً. ثم وضع يده على صدري ودعا الله تبارك وتعالى، بأن يملأ قلبي علماً وفهماً، وحكمةً ونوراً، ولم أنس من ذلك شيئاً ولم يفتني من ذلك شيء لم أكتبه...»³.

وكان علي (ع) يعلم الناس القرآن وأحكام الدين، ويؤيده رواية عن الامام ابي جعفر (ع) يقول فيها: «كان علي (ع) اذا صلى الفجر لم يزل معقّباً الى ان تطلع الشمس. فاذا طلعت اجتمع اليه الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس ليعلمهم الفقه والقرآن»⁴. والظاهر ان ذلك كان في عهد خلافته. ولكن لا يتنافى انه حصل في عهد النبي (ص) أيضاً. فكان الناس يسمعون من رسول الله (ص) نصوص القرآن الكريم، وكانوا يسمعون من علي (ع) تفسيرها في مسجد المدينة. ولا يتنافى ايضاً أن علياً (ع) كان يجهد في تحفيظ الناس آيات القرآن الجيد . ويؤيده قول عبد الله بن مسعود: «قرأت سبعين سورة من في رسول الله (ص). وقرأت البقية على اعلم هذه الامة بعد نبينا (ص) علي بن ابي طالب (ع)»⁵.

(¹) «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 46.

(²) «توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل» - الابي ص 418.

(³) «بحار الانوار» - رواه المجلسي باسناده عن سليم بن قيس الهلالي. ج 19 ص 26 الطبعة القديمة.

(⁴) «شرح منج البلاغة» ج 4 ص 109.

(⁵) «بنايع المودة» - المودة الثالثة ص 247. رواها مير سيد علي الهمداني باسناده عن هاشم بن البريد.

الدلالات العلمية للنصوص

1- كان الامام (ع) مستوعباً لمفردات القرآن الكريم استيعاباً تاماً من حيث الايمان والفهم والادراك والتأويل والتفسير، بالاضافة الى الحفظ والكتابة. فكان القرآن محور حياة علي (ع)، في العمل والجهاد والخطاب والتبليغ.

2- لم ينقل لنا التاريخ ان صحابياً أدرك فهم علوم القرآن الكريم وتعلمها من رسول الله (ص) كما أدركها علي (ع) وتعلمها منه (ص). فقد تعلم (ع) النسخ والمنسوخ، والتأويل والتفسير، والمحكم والمتشابه، والحلال والحرام، والعام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمحمل والمبين، والرخص والعزائم، والاداب والسنن. وهذا العلم الرباني بكتاب الله من قبل علي (ع) كانت له آثار خطيرة على مجمل حياته مع رسول الله (ص)، وبعد وفاته (ص)، وخلال فترة الانتظار، وفي فترة الخلافة وحتى استشهاده.

3- لم يحفظ علي (ع) القرآن مجرد الاستظهار، بل كان يتعلمه من النبي (ص) من اجل تعليمه للمسلمين ايضاً. ولا شك ان تجمع الفقراء والمساكين في المسجد بعد طلوع الشمس، وتعليمهم الفقه والقرآن له مغزى كبير، وهو: ان هؤلاء المستضعفين كانوا يرون في احكام الدين بريق أمل، يحقق لهم العدالة والكرامة وعبادة الخالق عز وجل بحرية. أي انهم كانوا يرون في الدين الجديد بريق أمل في الحياة المملوءة بالمعاني الجليلة السامية.

مقدمات حول كتابة القرآن الكريم

لا شك ان الثقافة المكتوبة لم تكن متداولة بشكل واسع قبل الاسلام، بل كانت الثقافة الاجتماعية ثقافة شفوية. ولذلك فقد أُشير الى المعلقات السبعة التي علقها العرب على جدار الكعبة قبل الاسلام، بشيء من الاهتمام والاكبار. لانه كان من النادر كتابة المواد الثقافية أو قرائتها. وعندما جاء الاسلام أحدث ثورة حقيقية في الثقافة المكتوبة، خصوصاً عند كتابة القرآن زمن رسول الله (ص). ومن اجل فهم الاجواء التي كانت سائدة زمن كتابة القرآن الكريم لابد من ترتيب النقاط التالية:

1- ان الذين كانوا يعرفون الكتابة في الصدر الاول من الاسلام قليلون. وكان منهم علي بن ابي طالب (ع)، وأبي بن كعب الانصاري، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن ابي سفيان «بعد عام الفتح»، وعبد الله بن سعد بن ابي سرح «الذي ارتدّ في حياة النبي (ص) وأمر (ص) بقتله»، وعثمان بن عفان، وآخرون.

2- انتشرت الكتابة في المدينة بعد هجرة رسول الله (ص). فعندما وقعت غزوة بدر الكبرى وتمّ تأسير سبعين رجلاً من مشركي قريش وكان فيهم عدد من الكتّاب، قبل رسول الله (ص) من الاميين الفدية بالمال،

وجعل فدية الكاتين منهم تعليمهم المسلمين القراءة والكتابة. فكلف كل أسير بتعليم عشرة من الافراد. وبذلك انتشرت الثقافة المكتوبة للقرآن في تلك المرحلة. وازدهرت الامصار الاسلامية بنعمة الثقافة الاسلامية، وبقيت الأمية الصرفة بين الاعراب من البدو في الصحراء العربية.

3- لابد من التمييز بين من كان يكتب الرسائل والعهود زمن النبي (ص) وبين من كان يكتب الوحي ويجمع القرآن. فان في كتابة القرآن وجمعه أثراً عظيماً في حفظ الاسلام وعدم تحريف الكتاب المجيد. بينما لم يكن ذلك الاثر في كتابة الرسائل. فهذا عبد الله بن أرقم كان كاتباً للرسائل فقط، ولم يرد انه كان كاتباً للقرآن. قال في «الاستيعاب» في ترجمة عبد الله بن أرقم: «انه كان من المواظبين على كتابة الرسائل عن النبي (ص) عبد الله بن أرقم الزهري...»⁶.

وقد وقع في خطأ عدم التمييز بين كتابة الرسائل وكتابة القرآن بعض كبار المؤرخين. ومنهم يعقوبي في تاريخه حيث أطلق الكلام حول كتاب الوحي ولم يقيد بكتابة الوحي او الرسائل او العهود، فقال: «وكان كتّابه الذين يكتبون الوحي، والكتب، والعهود، علي بن ابي طالب، وعثمان بن عفان، وعمرو بن العاص بن أمية، ومعاوية بن ابي سفيان، وشرحيل ابن حسنة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، والمغيرة بن شعبة، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وحنظلة بن الربيع، وأبي بن كعب، وجهيم بن الصلت، والحسين النميري»⁷.

4- ان الكتابة اذا كانت مجردة من مضامينها الرسالية، فاتها لا توجب شرفاً ولا منزلة ولا ثمر في صيانة كتاب الله المجيد. فقد كان عبد الله بن سعد كاتباً لكنه ارتد وبات يشهر بالنبوة لعدم ايمانه بعمله الذي كان يؤديه. وكان معاوية قد اعلن اسلامه قبل وفاة رسول الله (ص) بخمسة أشهر فقط وطرح نفسه الى العباس ليشفع له الى رسول الله (ص) فيعفو عنه⁸. ومع ذلك فقد زعم بانه كان من كتّاب الوحي. نعم، ربما كتب شيئاً من الرسائل للنبي (ص) في اواخر حياته، ولكن لم تتفق الاخبار انه كان كاتباً للوحي.

علي (ع) وجمع القرآن الكريم

كان موضوع كتابة القرآن المجيد زمن رسول الله (ص) أمراً في غاية الاهمية. ذلك ان القرآن اذا لم تتم كتابته وامضاؤه من قبل النبي (ص) في حياته، فانه سيكون عرضة للاخذ والرد واختلاف المسلمين عندما

⁶ «الاستيعاب» - القرطبي. ترجمة عبد الله بن أرقم.

⁷ «تاريخ يعقوبي» ج 2 ص 64.

⁸ «فتح الحق وكشف الصدق» - العلامة الحلبي ص 11.

يرحل (ص) الى العالم الآخر. فكان من اهتمامات علي (ع) الرئيسية كتابة القرآن المجيد في المدينة خلال حياة رسول الله (ص).

1 - كاتب الوحي (ع):

تعلم امير المؤمنين (ع) القراءة والكتابة في مكة، ولكن المصادر التاريخية لم تذكر لنا طريقة التعلم ولا اسلوبها. وعلى أي تقدير، فان الذي يهمننا من قدرة علي (ع) على الكتابة والقراءة هو كتابة القرآن الكريم وجمعه في حياة رسول الله (ص). وحسبما يساعد عليه الدليل فقد ثبت ان علياً (ع) كان كاتب الوحي لرسول الله (ص). فقد نقل العلامة المجلسي (ت 1111 هـ) عن «بصائر الدرجات»: «عن ابي جعفر (ع) قال: كان جبريل يُملي على النبي (ص) وهو يُملي على علي (ع)...»⁹. وكتب ابن شهر آشوب في «المناقب» قائلاً: «افلا يكون علي (ع) اعلم الناس وكان مع النبي (ص) في البيت والمسجد يكتب وحيه، ومسائله، ويسمع فتاواه، ويسأله. وروي ان النبي (ص) كان اذا نزل عليه الوحي ليلاً لم يصبح حتى يخبر به علياً (ع) واذا أنزل عليه نهاراً لم يمسه حتى يُخبر به علياً»¹⁰.

والى ذلك أشار ابن عبد ربه في فصل صناعة الكتاب: «فمن أهل هذه الصناعة علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وكان مع شرفه ونبله وقرابته من رسول الله (ص) يكتب الوحي»¹¹. والغريب استغرابه بالقول: وكان مع شرفه ونبله وقرابته من رسول الله (ص) يكتب الوحي. وهل كتابة الوحي الا شرف لا يستحقه الا علي (ع)!

وقد احتج (ع) حول معرفته بالقرآن المجيد وعلومه على جماعة من المهاجرين والانصار فقال: «يا طلحة ان كل آية انزلها الله تعالى على محمد (ص) عندي باملاء رسول الله (ص) وخط يدي وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد (ص) وكل حلال وحرام أو حد ، أو حكم، أو شيء تحتاج اليه الامة، الى يوم القيامة فهو عندي مكتوب باملاء رسول الله (ص) وخط يدي حتى إرش الخدش». ويمكن عطف ما ورد عنه (ع) على ما تقدم: «ما دخل رأسي نوم ولا غمض [جفني] على عهد رسول الله (ص) حتى علمتُ من رسول الله (ص) ما نزل به جبرئيل في ذلك اليوم من حلال أو حرام، أو سنة أو أمر، أو نهي، وفيما نزل، وفيمن تنزل...»¹². وما ورد في كتاب «سليم بن قيس»: جلستُ الى علي (ع) بالكوفة في المسجد والناس حوله،

⁹ «بحار الانوار» الطبعة الجديدة ج 18 ص 270. نقلها عن «بصائر الدرجات» عن العباس بن معروف عن حماد بن عيسى عن ربيعي بن زرارة عن ابي جعفر (ع).

¹⁰ «المناقب» - ابن شهر آشوب ج 2 باب المسابقة الى العلم.

¹¹ «العقد الفريد» - ابن عبد ربه ج 3 ص 5 فصل صناعة الكتاب.

¹² مقدمة «تفسير مرآة الانوار» عن ابي خالد الواسطي عن زيد بن علي (ع).

فقال: «سلوي قبل ان تفقدوني ، سلوي عن كتاب الله ، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله الا وقد أقرأنيها رسول الله (ص)، وعلمني تأويلها، فقال ابن الكواء: فما كان ينزل عليه وانت غائب؟ فقال: بلى ، يحفظ علي ما غبت، فاذا قدمت عليه قال لي يا علي، أنزل الله بعدك كذا وكذا فيقرأنيه، وتأويله كذا وكذا فيعلمنيه»¹³.

فنستنتج من كل ما تقدم ان علياً (ع) كان يكتب الوحي في كل مرة ينزل فيه، وكان يحفظ آياته عن ظهر قلب، وكان يدون القرآن مع هامش يذكر فيه العام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمحمل والمبين، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والرخص والعزائم، والآداب والسنن.

قال الرافعي في «اعجاز القرآن»: «واتفقوا على ان من كتب القرآن وأكمله، وكان قرآنه أصلاً للقرآنات المتأخرة : علي بن ابي طالب، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود»¹⁴. وبذلك، فلم يكن علي (ع) وحده كاتباً للوحي، بل كان معه آخرون ممن كتبوا الوحي بدقة، وفي ذلك نكتة مهمة وخطيرة نتعرض لها بعد قليل.

2- كتاب آخرون:

كتب القرآن المجيد بأمر رسول الله (ص) افراد آخرون بجانب علي (ع) منهم: زيد بن ثابت، وأبي بن كعب الانصاري، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

والكتابة في ذاتها ليست منقبة اذا لم تكن نابعة من الايمان بقيمة المكتوب وقداسته. فهذا «عبد الله بن سعد بن ابي سرح» أخو عثمان من الرضاعة نزلت فيه آية: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى اليّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأُنزلُ مثلَ ما أنزلَ اللهُ...) ¹⁵. فعندما اسلم عبد الله بن ابي سرح «قدم المدينة، وكان له خط حسن، وكان اذا نزل الوحي على رسول الله (ص) دعاه فكتب ما يمليه عليه رسول الله (ص)، فكان اذا قال له رسول الله (ص): سميع بصير، يكتب سميع عليم. واذا قال له: والله بما تعملون خبير، يكتب بصير. ويفرق بين التاء والياء. وكان رسول الله (ص) يقول: هو واحد فارتد كافراً ورجع الى مكة»، وقال لقريش: «والله ما يدري محمد ما يقول، انا اقول مثل ما يقول فلا ينكر علي ذلك وأنا

¹³ «كتاب سليم بن قيس» ص 171.

¹⁴ «اعجاز القرآن» - الرافعي. ص 35.

¹⁵ سورة الانعام: آية 93.

انزل مثل ما ينزل». فأُنزل الله على نبيه (ص) في ذلك: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...)¹⁶.

فلما فتح رسول الله (ص) مكة أمر بقتله. فجاء به عثمان بن عفان فأخذ بيده _ ورسول الله في المسجد _ فقال: يا رسول الله اعفو عنه. فسكت رسول الله (ص). ثم أعاد، فسكت. ثم أعاد، فقال: هو لك. فلما مر، قال رسول الله (ص) لاصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال رجل: عيني اليك يا رسول الله ان تشير اليّ بقتله فأقتله. فقال رسول الله (ص): ان الانبياء لا يقتلون بالاشارة. فكان من الطلقاء¹⁷.

ثم اورد عن «معاني الاخبار» حديثاً قال الصدوق في ذيله: وانما كان النبي (ص) يقول له فيما يغيره: «هو واحد». لانه لا يكتب ما يريد عبد الله بن ابي سرح، انما يكتب ما كان يمليه (ص). فقال (ص): هو واحد غيرت أم لم تغير لم يكتب ما كتبه، بل يكتب ما امله عن الوحي، وجبرئيل يصلحه. وفي ذلك دلالة للنبي (ص) على صدق نبوته.

وقال الصدوق: وجه الحكمة في استكتاب النبي (ص) الوحي معاوية وعبد الله بن سعد بن ابي سرح، وهما عدوان، هو ان المشركين قالوا: ان محمداً يقول هذا القرآن من تلقاء نفسه، ويأتي في كل حادثة بأية... الى ان قال: فاستعان في كتب ما ينزل عليه في الحوادث الواقعة بعدوين له في دينه عدلين عند أعدائه، ليعلم الكفار والمشركون ان كلامه في ثاني الامر كلامه في الاول غير مغير، ولا يزال عن جهة فيكون ابلغ للحجة عليهم. ولو استعان بولين مثل سلمان وابي ذر وأشباههما لكان الامر عند أعداءه غير واقع هذا الموقع، وكان يتخيل فيه التواطى والتطابق. فهذا هو وجه الحكمة في استكتابهما.

3- العلة في تعدد كتاب الوحي:

وكانت العلة الرئيسية في تعدد كتاب الوحي هو ان لا تختلف الامة بعد رسول الله (ص) في قضية القرآن، كما اختلفت في قضية الولاية الشرعية والامامة. وقد وعد الله سبحانه وتعالى بحفظه من كل تحريف، كما نستظهر من قوله: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)¹⁸.

لقد كان رسول الله (ص) أمياً لا يقرأ ولا يكتب بدلالة نص القرآن المجيد: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...)¹⁹، (وما كُنتَ تَلْوَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ،

¹⁶ (سورة الانعام: آية 93).

¹⁷ «بحار الانوار» الطبعة القديمة ج 19 باب 3. و«تفسير القمي» سورة الانعام: آية 93.

¹⁸ (سورة الحجر: آية 9).

¹⁹ (سورة الاعراف: آية 157).

وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطَلُونَ²⁰. وكان (ص) لا يستطيع كتابة ما ينزل اليه من وحي، بل كان بعد نزول الوحي اليه يحفظ القرآن النازل من آية او سورة ويبلغها الناس، ثم يُقرئها علياً (ع) ونخبة من الفائزين بشرف صحبته (ص)، ويستحفظهم اياها.

وكانوا اذا نقلوا عن النبي (ص) شيئاً من القرآن ترددوا عليه غير مرة، يتلوها امامه حتى يزداد تثبتهم من حفظها. ثم يذهبون وعلى رأسهم علي (ع) فيكتبونها ثم يعلمون الناس الآيات الجديدة النازلة عليه (ص). وبسبب تعدد كتّاب الوحي، فقد حُفظ القرآن الكريم من التحريف والتزييف. وقد كانت كل العوامل الاجتماعية خلال القرن الاول الهجري مهيأةً للتلاعب بالكتاب الكريم، ولكن وعد الله تعالى بحفظه جنب الامة تلك الجريمة. وكان تعدد كتّاب الوحي من اهم العوامل التي حفظت القرآن.

4- فنية كتابة القرآن:

ومن شدة اهتمام النبي (ص) بكتابة القرآن الذي كتب في عهده وفي حضرته انه كان يُنسخ على الصحف. وفي رواية اسلام عمر بن الخطاب دلالة بليغة على ذلك: قال له رجل من قريش: ان أختك قد صبأت (أي خرجت عن دينك) فذهب الى بيتها ولطم اخته لطمه شجّ بها وجهها. فلما سكت عنه الغضب نظر فاذا صحيفة في ناحية البيت فيها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)²¹، واطلع على صحيفة أخرى فوجد فيها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى... لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)²². واذا صحت الرواية، فهذا يعني ان القرآن كان متداولاً بين المسلمين مستنسخاً على شكل صحف.

وكان علي (ع) يكتب القرآن على جرائد النخل، واكتاف الابل والصحف والحريير والقراطيس وما تيسر من ادوات للكتابة والتصحيح. وكان (ص) يأمره بوضع الآيات في مواضعها في القرآن. وبكلمة، فان نص القرآن وترتيبه كان أمراً توقيفياً منه (ص) بأمر الوحي. فقد روى العياشي (ت 320 هـ) _ وهو من كبار محدثي الامامية _ في تفسيره في ذيل رواية له: قال علي (ع): ان رسول الله (ص) أوصاني اذا واريته في حفرتة ان لا اخرج من بيتي حتى أوّلف كتاب الله، فانه في جرائد النخل، وفي اكتاف الابل. وفي رواية علي بن إبراهيم (ت 307 هـ) _ وهو من ثقات المحدثين _ عن الامام جعفر الصادق (ع) قال: ان رسول الله

²⁰ سورة العنكبوت: آية 48.

²¹ سورة الحديد: آية 1 - 8.

²² سورة طه: آية 1 - 8.

(ص) قال لعلي (ع): يا علي ان القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضعوه كما ضيَّعت اليهود التوراة، وانطلق علي (ع) فجمعه في ثوب اصفر ثم ختم عليه²³.

وما روي ان علياً (ع) قد جمع القرآن بعد وفاة النبي (ص) مباشرة يُردّ عليه بأنه لم يكن جمعاً اصطلاحياً، بل أمر تدقيق وحفظ وصيانة وعناية.

ففي كتاب «سليم بن قيس» عن سلمان (رض): ان علياً (ع) بعد وفاة النبي (ص) لزم بيته واقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه، وكان في الصحف والشظاظ²⁴، والاسيار²⁵ والرقاع... الى ان قال: فجمعه في ثوب واحد وختمه²⁶.

وقد أوصى رسول الله (ص) علياً (ع): يا علي هذا كتاب الله حذره اليك. فجمعه علي (ع) في ثوب ومضى الى منزله، فلما قبض النبي (ص) جلس (ع) فألفه²⁷ كما انزل الله وكان به عالماً.

والخلاصة، أن علياً (ع) كان قد كتب القرآن الكريم في حياة رسول الله (ص) آية آية، وكان يُعرض ذلك عليه (ص) فيمضيه. وكان على الامام (ع) بعد وفاة رسول الله (ص) ان يقوم بجمع تلك الصحف وتدقيقها من اجل الاطمئنان على سلامتها، مصداقاً لوعده تعالى بحفظ الكتاب المجيد من التلاعب والتزييف.

وكانت ادوات تدوين القرآن الكريم المستخدمة في ذلك الوقت:

- 1- الرقاع: جمع رقعة، وتكون من جلد او ورق.
- 2- العسب: جمع عسيب، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص يكتب على الطرف العريض منه.
- 3- اللخاف: جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة الرقاق.
- 4- الاكتاف: جمع كتف، وهو العظم العريض من عظام البعير او الشاة، اذا جفّ كتبوا عليه.
- 5- الاقتاب: جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليحمل عليه. حيث كانوا ينقشون عليه الحروف والكلمات.
- 6- الحريير: وكان يكتب عليه.

(²³) «تفسير القمي» - علي بن إبراهيم بن هاشم القمي. رواها عن ابي بكر الحضرمي عن الامام الصادق (ع).

(²⁴) شظاظ: خشبة عفاء تدخل في عروقي الجواليق «الوعاء».

(²⁵) السيار: جمع السير وهو القدة المستطيلة من الجلد. والقُدُّ هو جلد المعز المشقوق طولاً.

(²⁶) كتاب «سليم بن قيس» ص 65.

(²⁷) التأليف: الجمع، ومنه قوله تعالى: (... فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته احواناً) سورة آل عمران: آية 103.

5- فلسفة كتابة الوحي:

عندما نستخدم لفظ «القراءة» أو «الكتابة»، فإننا لا بد ان نستخدم معهما القرينة ونحدد نوع القراءة والكتابة. فالقراءة أو الكتابة حقيقة ثقافية من حقائق الدين. وذلك لسببين:

الاول: ان الكتاب السماوي الذي يأتي به الدين، هو الطريقة المكتوبة لمخاطبة اهل الارض. والا، فلا يصحّ تسمية الخطاب الشفهي كتاباً.

الثاني: ان المبادئ الدينية لا بد ان تُحفظ مكتوبة او مخطوطة من اجل ان تستعملها الاجيال اللاحقة مصنونة من أي تغيير او تزيف.

والقاعدة ان الكتابة متلازمة مع القراءة، فلا قيمة للمكتوب اذا لم يُقرأ. فالعلاقة غير قابلة للتفكيك هنا بين الخطاب السماوي _ المكتوب _ وبين المكلف القادر على قراءة ذلك الخطاب. وهذا هو الذي دعا رسول الله (ص) _ وهو النبي الامي _ الى حثّ المسلمين على تعلّم القراءة والكتابة، خصوصاً في غزوة بدر عندما اشترط على اسراه الذين يجيدون ذلك الفن تعليم المسلمين القراءة والكتابة مقابل اطلاق سراحهم. فما لم تكن الامة متعلمة، تقرأ وتكتب، فالها لا تستطيع فهم معاني القرآن العظيم. ذلك لان الكتاب _ بمعناه التركيبي _ يعني مجموعة من الكلمات والحروف المنظمة التي لا تفهمها الا الشريحة التي درست وتعلّمت انطباق الالفاظ اللغوية على معانيها الفكرية عبر الحروف والكلمات.

وفي ضوء تلك الافكار نقرر ان من ميزات الكتاب المخطوط:

1- القابلية على استنساخه وتكثيره بكميات أكبر ونشره على مساحة أوسع في الولايات والامصار، بشرط ان تكون الامة مثقفة ومتدينة وقادرة على القراءة.

2- قابلية الكتاب المخطوط على حفظ المادة المخطوطة من الضياع والتحريف.

وكتابة الوحي هنا مقيّدة تماماً بالنقل الامين لالفاظ القرآن الكريم على الورق أو على ادوات الكتابة السائدة في ذلك الزمان على شكل حروف وكلمات. فهي لا تتضمن ابداعاً للافكار والآراء، او تبادلاً للقيم بين الكاتب والقارئ، ولا تتضمن أحكاماً يصدرها المؤلف. فالكتابة هنا مختصة فقط بالامانة القصوى والدقة المتناهية في نقل الخطاب الشفهي الى مادة مكتوبة. فكاتب الوحي يحتاج - ضمن خصائصه - الى ملكة في التقوى والخوف من الله ويقين تام بالدرجة الاولى، وقدرة على القراءة والكتابة بالدرجة الثانية. وقد كان افضل المرشحين لذلك العمل على الاطلاق: علي بن ابي طالب (ع). وكان البقية من الافراد من اتجاهات ومشارب شتى مثل: زيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن ابي سرح وغيرهم

من الذين كتبوا القرآن، انما سمح لهم رسول الله (ص) بالكتابة كان من اجل اتمام الحجة على الاعداء. والا فان خط علي (ع) كان كافياً لحفظ القرآن الكريم.

ولا شك ان التسلح بالسلاح اللفظي والعقلي من اجل نقل المادة الشفهية الى مادة مكتوبة، ينبغي في حالة كتابة الوحي ان يكون خالياً من أي تعبير شخصي أو رأي فردي. وهو ما قصدناه للتو بالتقوى واليقين عند الكاتب. فالكاتب هنا موظف فقط لتمام تلك العملية الامينة وهي نقل المادة الشفهية الى مادة مكتوبة. فهنا لا يحق للكاتب مطلقاً التلاعب بأفكار الكتاب الالهي من خلال اضافة كلمة أو حذف آية أو تبديل معناها. ولذلك فعندما حاول عبد الله بن ابي سرح التلاعب بالفاظ القرآن الكريم عند تدوينه عبر تبديل (سميع بصير) بـ (سميع عليم) أو تبديل (والله بما تعملون خبير) بـ (والله بما تعملون بصير) نزل فيه قرآن يُدينه واستحق القتل على ذلك، لانه اضاف من هواه وعقله الفاسد اضافات الى اقدس كتاب سماوي موجّه بلغة الخالق عزّ وجلّ الى المخلوقين المكلفين.

وفي اغلب الحالات يكون الكاتب - الذي توفرت فيه شروط التقوى واليقين- هو القارئ الاول للكتاب. فما بالك بعلي (ع) والقرآن، فلم يكن علي (ع) كاتب الوحي فحسب، بل كان أكثر الناس قراءةً لكتاب الله المجيد، وأكثرهم استلهاماً لمعانيه وأفكاره واحكامه بعد رسول الله (ص).

وليس غريباً ان نجزم بان الحفاظ على القرآن المجيد مصوناً بين الدفتين عبر التدوين، ساهم دون شك في حفظ أفكار القرآن، ومفاهيمه، وكلماته، ورسائله السماوية في الهداية. وبذلك اصبح الكتاب السماوي المجيد يعيش فيما وراء حدود الاجيال، والثقافات، والعلوم، والمعرفة الحقّة المتجددة مع تغيير المجتمعات الانسانية. وبكلمة فان القرآن عندما دُوّن، فانما أُريد له ان يكون الكتاب الاول المقروء عند اهل الارض. فهو كتاب السماء الخالد لهداية البشر الى خالقهم وبارئهم عزّ وجلّ. ذلك ان الثقافة الرسمية للاسلام ودولته مستمدة بشكل مباشر من مفاهيم القرآن الكريم وأفكاره واحكامه. وهنا اصبح القرآن الكريم، كتاب الامة الاول الذي تعتنى به وتقرأه، فكان الجهد الذي بذله علي (ع) بالدرجة الاولى وبعض الصحابة في الدرجة الثانية في كتابة القرآن الكريم موفقاً في تحمل مسؤولية حفظ كتاب الله المجيد وصيانته من كل تحريف في وقت كان المجتمع العربي الاسلامي يعيش حالة استثنائية مريرة من حالات تزوير احاديث النبي (ص) وسنته الشريفة بما يخدم السلطة وأهدافها.

ولا شك ان كتابة الوحي كانت متعلقة بقطبين هما: القراءة والمجتمع. فتدوين القرآن الكريم انما تم من اجل ان تقرأ الامة كتابها السماوي وتهتدي بهديه. فـ«القراءة والمجتمع» تعني هنا انه يمكن للدين تحديد حجم المخاطبين ومقدار تماسكهم الاجتماعي وتركيبتهم التطبيقية وقلوبهم وضمائرهم عبر الخطاب الالهي الموجّه لهم.

وبتعبير آخر، فإن القرآن المكتوب يصل الى جميع طبقات المجتمع القادرة على القراءة من أغنياء وفقراء، وتجار وعمال، ومزارعين وكسبة، وعلماء ومفكرين، وفقهاء ومحدثين، ويخاطب كل مجموعة باللغة التي تفهمها. فـ «القراءة والمجتمع» تعبّر عن حجم الرباط العقلي والروحي الذي يقوم القرآن الكريم بشدّ المجتمع به، افراداً وجماعةً. وبالتالي يقوم القرآن بشدّ الفرد والجماعة بالله سبحانه وتعالى وباحكامه وتشريعاته. ولذلك كان على الملايين من الامة الاسلامية في كل لحظة من لحظاتها وعلى مدى الزمن ان تقرأ ذلك الكتاب العظيم.

وهنا ينبغي ملاحظة نقطة مهمة أخرى وهي ان القرآن الكريم يخاطب العقل البشري. فهو ليس كتاباً دُونَ في زمن معين فخالط الوضع الاجتماعي في ذلك الزمان مشاعر الناس، وليس كتاباً دُونَ في مكان معين فانبهر الناس بمؤلفه واسلوبه الفكري ومشاعره القومية. بل ان القرآن الكريم يمثّل الكليات التي ارادت السماء أن تنقلها الى الارض. فهو كتاب لم يقيد بحدود القومية ولا اللغة والزمن والتأريخ والثقافة. بل هو أكبر من حجم القومية واللغة والزمن والتأريخ والثقافة. لان هذا الكتاب المجيد ينقل قارئه الى عالم السماء والآخرة والتوحيد والعظمة والجبروت.

ولذلك كان تدوينه وصيانيته من اعظم الاعمال التي قام بها علي (ع) جنباً الى جنب بطولاته المشهودة وزهده وتعفّفه. ذلك ان القرآن _ الذي يعبّر عن كلام الله سبحانه _ كتابٌ حيٌّ كُتبت له الحياة الى الابد. والموت الثقافي للكتب يحصل فقط لتلك التي يخطها الانسان يمينه. فمن المعلوم ان 99% من الكتب التي تُكتب تندثر بعد فترة زمنية معينة، ويبقى منها اقل من 1% فقط تتداوله الاجيال. وحتى ان ما تتداوله الاجيال يندثر رويداً رويداً بسبب اختلاف كليات الازمنة المتلاحقة. فتلك الكتب تفقد نكهتها واسلوبها ومشاعر مؤلفيها بعد عدد غير محدد من السنين. اما كلام الله عزّ وجلّ وكتابه القرآن المجيد فانه محفوظ ومصان الى يوم القيامة. وهذا يفسّر لنا الاهتمام البالغ للامام (ع) بكتابة القرآن الكريم وجمعه في حياة رسول الله (ص)، والاهتمام الشديد بتدقيقه والاعتناء به بعد وفاته (ص).

الفصل العاشر

الحياة العائلية

علي (ع): الحياة العائلية * الدلالات العلمية للنصوص * الحياة الزوجية لامير المؤمنين (ع): 1- الخصائص المستقاة من رسول الله (ص). 2- وظائف الزواج العلوي. 3- التركيبة العلوية. 4- الاسرة الشريفة: قمة القيم الاخلاقية * كفاح الاسرة العلوية: 1- معنى الجوع في العائلة. 2- الطعام وأساليب استهلاكه في العائلة. 3- مشقة فاطمة الزهراء (ع) * زي فاطمة الزهراء (ع): 1- أسلوب الحجاب الشرعي. 2- وظائف الحجاب الشرعي * تعدد الزوجات بعد وفاة فاطمة (ع): 1- زواج الأماء: أ- معنى العبودية والتحرر. ب- الفوارق بين الرق في الاسلام والعبودية الحديثة. 2- مغزى تعدد الزوجات: أ- الاقتداء برسول الله (ص). ب- زوجات امير المؤمنين (ع).

علي (ع): الحياة العائلية

تبدأ حياة امير المؤمنين (ع) الزوجية باقترانه بسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع). وكان علي (ع) يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، وكانت فاطمة بنت عشر. فقد ولدت فاطمة (ع) بمكة بعد النبوة بخمس سنين، وزوجه اياها رسول الله (ص) في شهر رمضان من السنة الثانية من للهجرة. وبنى بها الامام في شهر ذي الحجة من السنة ذاتها، أي بعد حوالي اربعة أشهر من اتمام العقد. والى مجمل ذلك اشار رسول الله (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي»²⁸. ودعا (ص) الله بجمع شملهما وسعادة جدّهما وبمباركته عليهما وان يخرج منهما كثيراً طيباً²⁹. والمشهور ان مهرها كان اربعمائة مثقال فضة³⁰. وهو مبلغ زهيد، بالمقارنة مع الاموال التي كانت تُبذل في مكة في مناسبات مشابهة. وكان متاع البيت الجديد عبارة عن فراش من خيش مصر (وهو من أردأ الكتّان) محشواً بالصوف، وقطعاً من آدم (وهي جلود الحيوانات المدبوغة)، ووسادة من آدم حشوها ليف النخل، وعباءة خيبرية، وقربة للماء، وكيزان (أوعية ماء)، وجرار، ومطهرة للماء، وستر صوف رقيق اشتراه علي (ع) من صداقها (ع)³¹. ومع قلة المتاع والزاد، الا ان علياً (ع) كان كفواً لها في الدين. وقد نُقل عنه (ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفءاً».

وفي المأثور انه «لما جهز رسول الله (ص) فاطمة الى علي (رض) بعث معها بخميل. قال عطاء: ما الخميل؟ قال: قطيفة (وهو دثارٌ مَحْمَلٌ)، ووسادة من آدم حشوها ليف واذخر (نوع من النبات)³² وقربة، كانا يفترشان الخميل يلتحفان بنصفه»³³.

وكانت حياتهما المنزلية شاقّة للغاية يشهد لهما تعففهما وزهدهما في الدنيا. فهذا ابو نعيم يروي ان فاطمة بنت رسول الله (ص) طحنت «حتى مجلت يدها (أي تُخن جلدتها)³⁴ ورئي اثر قطب الرحي في يدها»³⁵. وفي موضع آخر: «ان فاطمة كانت حاملاً، فكانت اذا خيزت اصاب حرف التنور بطنها، فأنت النبي (ص) تسأله خادماً فقال: لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع، أو لا أدلك على خير من ذلك؟ اذا أويت الى فراشك تسبّحين الله تعالى ثلاثاً وثلاثين وتحمدينه ثلاثاً وثلاثين وتكبرينه أربعاً

(²⁸) «مجمع الزوائد» - الهيثمي باسناده عن عبد الله بن مسعود ج 9 ص 204. وقال: ورواه الطبراني ورجاله ثقة.

(²⁹) «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن انس بن مالك ص 86.

(³⁰) «الصواعق المحرقة» - ابن حجر. ص 84. و«ذخائر العقبى» - الطبري ص 29. و«كفاية الطالب» ص 298.

(³¹) «المناقب» - الخوارزمي. الفصل العشرون ص 247.

(³²) اذخر: نبت، الواحدة إذخرّة.

(³³) «مجمع الزوائد» رواه باسناده عن عبد الله بن عمر ج 9 ص 210.

(³⁴) مجلت: اذا تُخن جلدتها وتعجر وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالاشياء الصلبة الخشنة ومنه حديث فاطمة (ع) انها اشتكت الى علي (ع) مجل يديها من الطحن

(النهاية لابن الاثير ج 4 ص 300).

(³⁵) «حيلة الاولياء» - ابو نعيم باسناده عن الزهري ج 2 ص 41.

وثلاثين»³⁶. ويؤيد ما كانت عليه من المشقة ما رواه أحمد: «ان بلاً بطاً عن صلاة الصبح، فقال له النبي (ص) ما حبسك؟ فقال: مررت بفاطمة وهو تطحن والصبى يبكي، فقلت لها: ان شئت كفيتك الرحى وكفيتني الصبي، وان شئت كفيتك الصبي وكفيتني الرحى، فقالت: أنا أرفق بابني منك، فذلك حبسني . قال (ص): فرحمتها رحمك الله»³⁷.

وكانت (ع) تطوي الايام بلا طعام. كما تحكي الرواية بأن علياً قال لها يوماً: هل عندك شيء تطعميني؟ قالت: لا والله يا ابا الحسن ما عندنا منذ ثلاث شيء الا شيء أترك به على نفسي وعلى ابني قال لها: فهلاً أعلمتيني؟ قالت: ابني لاستحيي من ربي أن أكلفك ما لا تقدر عليه...»³⁸. يقول امير المؤمنين (ع): «كنا مع النبي (ص) في حفر الخندق اذ جاءته فاطمة بكسرة من خبز فرفعتها اليه، فقال: ما هذه يا فاطمة؟ قالت: من قرص احتبزه لابي جئتك منه بهذه الكسرة، فقال: يا بنية أما لاول طعام دخل فم أهلك منذ ثلاث»³⁹.

وكان رداؤها الحياء والحجاب الشرعي. ومع ان بيتها كان ملحقاً بمسجد رسول الله (ص)، الا ان الروايات لم تذكر ان أحداً رأى وجهها. وحتى عندما خطبت الخطبة المشهورة في مسجد رسول الله (ص) بعد وفاة ابيها (ص) كان الحجاب ضارباً أطنا به علي وجهها فضلاً عن جسدها. وكان ملبسها في غاية التواضع.

ولدت فاطمة (ع): الحسن والحسين وزينب الكبرى وام كلثوم (زينب الصغرى)⁴⁰. وسقط محسن عندما اقتحمت دارها بعد وفاة ابيها (ص) فاحتمت بالباب فكُسر ضلعها (ع) واسقطت جنينها. وبعد ذلك قضت نحبها (ع) وسنها ثمانى عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً⁴¹. واختلفت اقوال المؤرخين حول مدة حياتها بعد النبي (ص)، فقيل: اربعين يوماً⁴²، وقيل: شهرين⁴³، وقيل: ثلاثة أشهر⁴⁴، وقيل: ستة أشهر⁴⁵.

³⁶ (المصدر السابق) باسناده عن علي (ع) ج 2 ص 41.

³⁷ (مسند احمد) باسناده عن انس بن مالك ج 3 ص 150.

³⁸ (المعيار والموازنة) - الاسكافي رواه عن المقداد ص 236.

³⁹ (ذخائر العقبى) باسناده عن علي (ع) ص 47.

⁴⁰ (الطبقات الكبرى) ج 8 ص 17.

⁴¹ (وسيلة المال) ص 179.

⁴² (نظم درر السمطين) ص 181.

⁴³ (المستدرک على الصحيحين) ج 3 ص 163.

⁴⁴ (الطبقات الكبرى) ج 8 ص 18.

⁴⁵ (المستدرک على الصحيحين) ج 3 ص 162. و«مجمع الزوائد» ج 9 ص 211.

وعلى أي تقدير، فان فاطمة (ع) كان غاضبة على ابي بكر وعمر اللذين غصباها حقها وآذاها. فكان البيت النبوي فيما بعد وفاة رسول الله (ص) يعيش حالة من حالات الحزن الشديد والالم بفقدان النبي (ص) ونكث العهد. ولا نعرف على وجه الدقة تاريخ وفاتها او موضع قبرها لحدّ اليوم. ولم يتزوج علي (ع) عليها في حياتها اجلالاً لها وتكريماً لعصمتها حتى استشهدت صلى الله عليها وعلى ابيها وعلى زوجها وبنيتها. استمرت الحياة الزوجية بين علي وفاطمة (عليهما السلام) حوالي ثمان سنوات، ثم انتهت باستشهادها (ع). وبعد انتقالها الى عالم الجوار الابدي (ع)، بقي الامام (ع) وحيداً مع ابنه الحسن والحسين (ع) وابنتيه زينب وام كلثوم الى ان تزوج بعددٍ من النساء، منهن:

1- (امامة بنت ابي العاص)، وامها زينب بنت خديجة بنت خويلد، وولدت له محمداً الاوسط الذي استشهد في كربلاء.

2- (خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية) وولدت له: محمداً الاكبر (ابا القاسم).

3- (ام حبيبة بنت ربيعة) وولدت له توأماً: عمر، ورقية.

4- (ام البنين بنت حزام بن خالد الكلابية) وولدت له: العباس، وجعفر، وعثمان، وعبد الله الشهداء مع اخيهم الحسين (ع) بكربلاء.

5- (ليلي بنت مسعود الدارمية) ولدت له: محمداً الاصغر (ابا بكر)، وعبيد الله الشهيدان مع اخيهما الحسين (ع) بكربلاء.

6- (أسماء بنت عميس الخثعمية) وولدت له: يحيى الذي توفي صغيراً قبل ابيه، وعوناً.

7- (ام سعيد بن عروة بن مسعود الثقفي) وولدت له: ام الحسن، ورملة.

(وأمهات اولاد شتي) ولدن: نفيسة (ام كثوم الصغرى)، وزينب الصغرى، ورقية الصغرى، وام هاني، وام الكرام، وجمانة (ام جعفر)، وامامة، وام سلمة، وميمونة، وخديجة، وفاطمة.

وبكلمة، فقد كان لعلي (ع) 27 ولداً، منهم اربعة عشر من الذكور، والباقي من الاناث. وكان عنده يوم استشهاده من النساء اثنتان وعشرون، منهن اربع زوجات: امامة بنت اخت فاطمة الزهراء (ع) من امها، وليلي بنت مسعود، وأسماء بن عميس، وأم البنين الكلابية، و18 امهات اولاد.

الدلالات العلمية للنصوص

1- تشير جميع الدلائل العلمية والتاريخية الى ان زواج علي (ع) بفاطمة (ع) كان امرأ من الله عزّ وجلّ. وقد كان ابو بكر وعمر يطمحان في التزوج من فاطمة الزهراء (ع)، ولكن رسول الله (ص) كان يعرض عنهما ويقول مرة: ان أمرها الى ربها⁴⁶، واخرى كان يقول لهما: حتى ينزل القضاء⁴⁷. وكلا الجوايين يفضيان الى ان رسول الله (ص) كان ينتظر امر السماء فيها. وفي ذلك دلالة على فضل علي (ع) وكفائته حيث انتخب لها.

علماً بأن رسول الله (ص) تزوج ابنتي ابي بكر وعمر وهما عائشة وحفصة.

2- ان ما ميز حياة علي (ع) العائلية ومن قبله رسول الله (ص) أنهما ساوى نفسيهما مع افقر فقراء بلاد الاسلام، بل حتى الفقير المدقع لا يتحمل حرماناً كلياً من الطعام ثلاثة ايام بلياليها. ولم يكن الحرمان مقصوداً على الطعام والشراب، بل كان يمتدّ الى اغلب المباحات الحياتية من اثاث ومتاع تقتضيه مستلزمات العيش الاجتماعي في الاسرة. ومن هنا ندرك بساطة متاع فاطمة (ع) وحشونة ملابسها وملبس زوجها. فقد روي ان علياً (ع) عندما اشترى بصدّاق فاطمة الزهراء (ع) متاع بيته نظر اليه رسول الله (ص) فبكى ثم رفع رأسه الى السماء وقال: اللهم بارك لقوم جُلّ أوانيهم الخزف⁴⁸ - ⁴⁹. والواوي المصنوعة من الطين المفخور هي اقل ما يستطيع الزوج ان يقدمه لاسرته الجديدة. وكانت نساء مكة في ذلك الزمان يفترشن الحرير ويلبسن ما تنتجه الصين والهند من ملابس تنقلها لهم القوافل العابرة الى الشام. فلا شك ان وضع فاطمة الزهراء (ع) كان وضعاً استثنائياً تحدّثت عنه نساء مكة انذاك.

3- ان فاطمة (ع) لم تكن لتسأل رسول الله (ص) خادماً لولا انها كانت لا تطيق عمل البيت وهي على ما هي عليه من طهارة النفس والروح والجسد مشغولة بذكر الله عزّ وجلّ. وقد كان علاجها متناسباً مع شخصيتها الدينية الرسالية، لقد كان علاجها التسبيح والتكبير والتحميد. فكان سؤالها أباهما عمّن يساعدها في ادارة أعمال البيت مبرراً على الصعيدين العربي والاخلاقي، لان تلك التكاليف كانت تمنعها بعض الوقت عن تمام الانشغال بالله سبحانه، واداء حق الزوجية والأمومة. وقد كانت الواجبات البيتية في ذلك الزمان تقتضي الخدمة والمساعدة من الغير، لان الجهد كان يبذل من اجل اتمام اعمال البيت باليد، فلم تكن هناك غسّالة تعمل بالبرق لغسل الملابس، ولم يكن هنا طبّاخ غازي أو نفطي لطهي الطهام، ولم تكن هناك انايب لنقل

⁴⁶ « المناقب » - الخوارزمي. الفصل العشرون ص 247.

⁴⁷ « مجمع الزوائد » ج 9 ص 204.

⁴⁸ الخزف: لاجر، وهو اناء الماء من الطين المفخور.

⁴⁹ « المناقب » - الخوارزمي. الفصل العشرون ص 247.

المياه المصفاة. فكان غسل الملابس وطهي الطعام ونقل المياه يتطلب جهداً ووقتاً لا يطيق الفرد القيام به لمفرده. وكانت فاطمة الزهراء (ع) يتيمه من طرف الام وليس لها عم أو عمه، ولا خال أو خالة على الأرجح. وليس لها اخ أو اخت من أبيها تركن اليهم وقت الشدة.

4- كانت الفترة التي عاشها علي (ع) تستدعي تأليف القبائل، فكان (ع) يتزوج من سائر القبائل العربية من اجل تثبيت الاسلام. في حين كانت القبائل تتشرف بالانتساب اليه (ع) عن طريق الزواج . ولاشك ان قضية الاماء أو ملك اليمين كانت منتشرة في ذلك العصر، فكان اشرف المسلمين يشترطون من اجل تثبيتهن على الاسلام ثم يطلق سراحهن، فكنّ يفضلن البقاء مع ازواجهن (سادهن) المؤمنين في مرحلة الحرية. فلم يكن غريباً ان نرى امير المؤمنين (ع) قد تزوج بهذا العدد من الزوجات. فقد كان العرف الاجتماعي يقتضي ان يتزوج القائد من اطراف القبائل العربية. يضاف الى ذلك ان بعضهن كن ارامل يعشن حياة الفقر مع ابائهن اليتامى، فكان يشار اليه بأبي الارامل واليتام. وملك اليمين على الاغلب من الارامل اللاتي فقدن ازواجهن في الحروب، او اليتامى اللاتي فقدن آبائهن في الحروب ايضاً.

الحياة الزوجية لامير المؤمنين (ع)

يتطلب الزواج تنظيمًا جديدًا للعلاقات الاجتماعية، بما فيها السكن الجديد للزوج والزوجة والعلاقات السببية الناتجة من آثار الزواج. ويُعدُّ الزواج في العرف العلمي تحالفاً بين مجموعتين من الافراد ستربطهما لاحقاً رابطة الدم والرحم. فالمجموعة الاولى تمثل الزوجة وأرحامها، والمجموعة الثانية تمثل الزوج وأرحامه. ولا شك ان الزواج يقوي الآصرة القائمة بين عائلي الزوجين. ومن هذا الاطار ننظر الى زواج امير المؤمنين (ع)، فقد اقترن بينت خاتم الرسل والانبياء (ص). وهذا الاقتران يحمل دلالات دينية واجتماعية وفكرية لا يمكن المرور عليها من دون دراستها دراسة علمية دقيقة. فان من مقتضيات اقترانهما ان بيت النبوة والامامة بات مركز اهتمام المسلمين جنباً الى جنب مع القرآن الكريم. ذلك لان اهل بيت النبوة (ع) كأسرة مكونة من رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهما السلام) كانت مصدر العطاء الفكري العملي بعد القرآن الكريم. وكانت القدوة الاخلاقية العليا للامة على مر الزمن.

وبالاجمال، فان من آثار زواجهما كان تهيئة نسل طاهر معصوم يحفظ رسالة الاسلام الى يوم القيامة بعد ان كان ذلك الاقتران تحالفاً قدسياً بين النبوة والامامة، أي بين محمد رسول الله (ص) وعلي وصي رسول الله (ص) من اجل الاسلام واعلاء كلمة الله سبحانه.

وتشكيل عائلة عن طريق الزواج الشرعي يتبلور من عمل مشترك وتعاون متضافر يقوم به الزوجان، وصورته الكلية: وظيفة الزوجة داخل البيت ووظيفة الزوج خارج البيت. وفي ضوء ذلك تتوضح صورة الحقوق والواجبات داخل الاسرة. وليس هناك من حاجات مادية كثيرة في اسرة النبي (ص) والاسرة العلوية (ع). فقد كان الخبز هو المصدر الرئيسي لرزق العائلة، وكان التعب والخشوع وقراءة القرآن اهم ما يشغل البيت وأعضاءه. وكانت فاطمة (ع) تعمل ضمن حدود بيتها بما يستلزم الامر من خدمات، وكان (ع) يعمل ويكدح من اجل سد رمق عائلته. ولكن اساس العائلة العلوية قائمٌ على طاعة الله سبحانه وعبادته والجهاد في سبيله مهما كلف ذلك من تضحيات.

1- الخصائص المستقاة من رسول الله (ص):

ضمت اسرة علي وفاطمة (عليهما السلام) ثلاث خصائص مستقاة من رسول الله (ص) وهي: الارث، والخلافة «الولاية»، والنسب. فالارث كان متمثلاً بانتقال ملكية رسول الله (ص) الى ابنته الوحيدة (ع) من خديجة بنت خويلد⁵⁰. والخلافة او الولاية كانت متمثلة بانتقال المنصب الالهي الى علي (ع) بالامامة، لانه لا نبي بعد رسول الله (ص). والنسب كان متمثلاً بانتقال العوامل الوراثية النبوية من رسول الله (ص) الى ابنته الطاهرة فاطمة (ع)، ومن فاطمة وعلي (ع) الى ذريتهما الطيبة الطاهرة. فكانت الذرية الطاهرة تحمل صفات جدها (ص) وخصاله الحميدة في الكرم والشجاعة والاخلاص والتضحية والتفاني والعلم والتقوى والتعب.

ولا شك ان انتقال الملكية، والمنصب الالهي، والعوامل الوراثية بشكل متوازٍ في اسرة واحدة، يشكل ظاهرة فريدة في الاسلام. فلم توفق اسرة رسالية الى مثل ذلك التوفيق العظيم. فلا بد ان تكون حياة علي (ع) الزوجية ظاهرة فريدة لم تتكرر في التأريخ الديني على الارض.

والخصوصية في ذلك تكمن في ان التزاوج بين فردين من اشراف القوم يعني استمرار الفكرة او الرسالة التي يحملها الى الجيل الجديد عبر ذريتهما. ولذلك فان اقتراحهما يعني انتصاراً للفكرة التي يحملها. بمعنى ان عملية التزاوج تلك تعكس مبدأ الحفاظ على الرسالة الدينية اكثر مما تعكس مجرد اشباع العواطف والرغبات المشروعة.

وتوكأً على عكازة تلك الفكرة نفهم ان عملية الزواج العرفية تقوم على اساس انها علاقة بين رجل وامرأة اعترف بها المجتمع واقراها. بينما نفهم ان لزواج علي وفاطمة (عليهما السلام) - اضافةً الى الاقرار

⁽⁵⁰⁾ المشهور ان فاطمة (ع) بنت رسول الله (ص) من خديجة، اما بقية بنات خديجة من غير النبي (ص) فكان يطلق عليهن مجازاً بنات رسول الله (ص).

الاجتماعي به _ إقراراً آخر، وهو اقرار السماء وإيمان الملائكة بملاكه ومصالحته. ويؤيده قول رسول الله (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي»⁵¹.

ومعناه ان شرعية زواج علي (ع) من فاطمة (ع) لم تكن حسبما يقتضيه العرف الاجتماعي والديني على الارض فحسب، بل كانت لشرعية ذلك الزواج قدسية معينة في السماء، ذلك لان للزوجين خصائص روحية وعقلية وطاقات كامنة لا يعدلها شيء. فالمرأة التي لها منزلة دينية كفاطمة بنت رسول الله (ص) لا بد ان تقترب من رجل له منزلة دينية كعلي بن ابي طالب (ع)، حتى يكون الزواج متكافئاً في عالمي الشهادة والغيب. والتكافؤ كان مخصوصاً في العصمة في فهم احكام الدين وادراك معانيه العظيمة. ومع ان للنسب دوراً وشرفاً ايضاً، الا انه ليس الاصل. لان جعفر بن ابي طالب⁵² كان ينبغي ان يكون كفؤاً لفاطمة (ع)، لو اخذنا بنظرية النسب. ولكنه لم يكن كفؤاً لانه لم يكن يمتلك تلك العصمة في ادراك الدين كما كان يمتلكها علي (ع).

ولا شك ان الموافقة المتبادلة بينهما على الاقتران دون شروط مادية دنيوية، تكشف عن ان الزوجين كانا يرتضيان الحياة الجديدة بما فيها من قدسية وتعبد لله سبحانه، وبما فيها من قدوة طيبة ومنار هداية للمجتمع الاسلامي. فالاقتران بالاسرة النبوية _ العلوية كان مثار فخر للمسلمين على طول الدهر لانها كانت تمثل الاسرة الامثل والاتقى والاطول بقاءً في تأريخ القيم والمثل السماوية.

واذا كان الزواج الشرعي _ بشكله العام المطلق _ يعطي المرأة زوجاً يعترف به المجتمع، فان زواج فاطمة (ع) من علي (ع) بالخصوص اعطاها كفؤاً في فهم الدين وادراك الشريعة السماوية. ولم يسبق اننا قرأنا في التأريخ الديني ان السماء قد صممت زواجاً بين فردين طاهرين كما تذكره الروايات بالنسبة لعلي وفاطمة (عليهما السلام)، كما اشار (ص): «ان الله امرني ان ازوج فاطمة من علي».

واذا كان الزواج يشكل عند الملوك انشاء عائلة سياسية شابة جديدة، وعند التجار يشكل انشاء عائلة تجارية جديدة، وعند العمال يشكل انشاء عائلة عمالية جديدة، فان عائلة فاطمة وعلي (عليهما السلام) اصبحت تشكل عائلة دينية لها قدسية فريدة. فقد بسط الوحي النازل على ابيها (ص) جناحيه السماويين في بيتهما، وكان عقب النبوة وعطر العصمة واريح الامامة يشع من ارجاء ذلك البيت الطاهر. وبكلمة، فان

(⁵¹) «مجمع الزوائد» ج 9 ص 204.

(⁵²) جعفر بن ابي طالب: هاجر الى الحبشة في مجموعة من المسلمين تقدر بثلاثة وثمانين. وفي العام الثالث للهجرة رجع جعفر الى المدينة فقال رسول الله (ص): «ما ادري بايها افرح بقدم جعفر ام بفتح خيبر». ارسله رسول الله (ص) بقيادة جيش اسلامي الى مؤتة في السنة الثامنة، فابلى جعفر بن ابي طالب بلاءً حسناً، فقطعت يمنة فأخذ الراية بشماله ثم قطع شماله فضم الراية الى صدره حتى خرّ صريعاً شهيداً في سبيل الله. وصفه رسول الله (ص) بجعفر الطيار لان الله تعالى ابدله عن يديه بجناحين في الجنة مع الملائكة.

وظيفة اهل بيت النبوة (ع) - الاسرة الاولى في المجتمع الاسلامي - كانت تلخص بحمل المسؤولية الاخلاقية والشرعية من جل الحفاظ على الرسالة الالهية حية الى يوم القيامة.

ان اختيار الرجل زوجته، او المرأة زوجها، له علاقة مباشرة بالدور المتوقع الذي سوف تقوم به الزوجة او الذي سيقوم به الزوج في المستقبل. فالاختيار الزوجي هنا مرتبط بحجم المسؤولية الملقاة على عاتقهما. فالملك مثلاً يختار زوجته لتصبح السيدة الاولى في المجتمع، ورئيس الدولة يختار قرينته لتشاركه همومه في الادارة الاجتماعية. ومن هذا المنطلق نتوقع من تزواج الاشراف ثمرات على صعيد الدين والفكر والاجتماع والقودة والمثل العليا. وكلما كانت درجة الشرف عالية، كانت المسؤولية المتوقع تحملها من قبل الزوجين اثقل.

فكان تكافؤ الاسرة العلوية يُصبُّ في هذا المصبِّ. فمعدن علي (ع) الرسالي يتكافأ مع اخلاقية فاطمة (ع) ومعدنهما الطيب الطاهر المتصل بسلالة النبوة في التأريخ. والاصل في فكرة الزواج تلك انما كانت مبنية على تكافؤ عصمة علي (ع) مع عصمة فاطمة (ع). ومن هنا كان قول رسول الله (ص): «لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ». ولذلك، فانه (ص) لم يزوج فاطمة (ع) لابي بكر او عمر بن الخطاب، مع انهما كانا يترددان عليه (ص) ويسألانه عن فاطمة (ع). فكان يجيبهم ان امرها عند الله سبحانه. وهو جواب نبوي في غاية الادب يكشف عن انهما ليسا كفوءاً لسيدة نساء العالمين (ع) في العصمة في الدين، والطهارة في النسب.

لقد كان من ثمار بناء الاسرة العلوية هو انجاب ثلة طيبة من ائمة الهدى (ع) حفظت رسالة الدين حية نابضة الى يوم القيامة. لقد كان الدور المتوقع لاسرة علي (ع) هو حفظ الدين من تلاعب الظالمين والطغاة وطلاب الدنيا، وصيانتهم من كل تحريف.

2- وظائف الزواج العلوي:

حمل زواج علي وفاطمة (عليهما السلام) وظائف مهمة على صعيدي الدين والحياة، يمكن اجمالها بالنقاط التالية:

الاولى: الحفاظ على ذرية المصطفى (ص) حية نابضة على طول التأريخ. فكانت فاطمة الزهراء (ع) البنت الوحيدة لرسول الله (ص). وعن طريقها حُفظ نسل النبي (ص).

الثانية: تثبيت هوية الانتماء لاهل بيت النبوة (ع)، وتثبيت المنزلة الدينية والجمع بين النبوة والامامة في بيت واحد وهو بيت رسول الله (ص). فقد كانت حجرة فاطمة (ع) في مسجد رسول الله (ص) تأخذ منه (ص) العلم والحكمة والقرآن، وتستلهم من اخلاقه الفاضلة أكمل الفضائل والخصال الدينية، وتشاركه كل يوم في العبادة والنقاء والطهارة الروحية. لقد سرت في شرايين الاسرة العلوية دماء رسول الله (ص) ودماء

الإمامة. فالإبناء أخذوا من آباؤهم علوم الدين وأخلاقية الرسالة، والبنات تعلمن الصفاء الروحي والثقافة الدينية من امهاتهن. وكلُّ سدد الآخر في تقواه وزهده وفصاحته وشجاعته.

الثالثة: بقيت أسرة آل البيت (ع) القدوة والمثل الاعلى في المجتمع الاسلامي. فهي العائلة المتكافئة في القيم الدينية، والعصمة، والممارسات التعبدية، والاخلاق، والصدق، والجهاد، وتحمل المشقة، والقناعة، وكل ما يحمله العلوّ الديني والشرف الاجتماعي من معانٍ سامية وأهداف عظيمة.

ولاشك ان الاختلاف السلوكي للمعصومين مثل علي (ع) وفاطمة (ع) ينبع من اختلافهما في الفسلجة والتركيبة الجسدية. ففاطمة (ع) كانت تمر بفترات الحمل والولادة والرضاعة وكانت تقوم بانجاز الاعمال المنزلية وتربية الصغار، بينما كان علي (ع) يحرث الارض ويسقي الزرع وينقل الماء من اجل لقمة العيش. وكانت فاطمة (ع) تقوم بالمواعظ البليغة التي وصلتنا منها شذرات قليلة. بينما كان علي (ع) يعلم القرآن واحكام الشريعة ويجاهد في سبيل الله ويقاوم المشركين. وهذا الاختلاف في وظيفتهما الفسلجية لا يعكس اختلافاً في درجة عصمتهم وادراكهما لاحكام الدين واهداف الشريعة. ولو كان هناك اختلاف لاختل ميزان التكافؤ الذي تحدث عنه رسول الله (ص) بينهما قبل الزواج.

والوظيفة الفسلجية للذكورة تقتضي القوة الجسدية، والتحرك السريع من مكان لآخر، والغياب عن الاسرة لفترة قد تقصر او قد تطول في الحروب والمعارك مع الشرك. بينما تقتضي الوظيفة الفسلجية للانوثة طاقة تحمل وصبر، وطاقه للمكث الطويل مع الاسرة من اجل الاهتمام بشؤون القاصرين وتربيتهم وتعليمهم، وقوة جسدية اقل من قوة الرجل. ولذلك كانت وظيفة القوامه على الرجل لا على المرأة، كما اشار تعالى: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض...)⁵³.

والوظيفتان، على الصعيد الاجتماعي، تكمل احدهما الأخرى. فالمجتمع يتوقع من المرأة أداء دورها، كما يتوقع من الرجل ذلك. ولكن المجتمع العربي البدوي كان مجتمعاً عسكرياً محارباً يعتمد على القوة العضلية للرجل، ويعتمد على حجم قدرته على الاداء في ساحات المعارك. وكان علي (ع) القمّة في ذلك. ومع ذلك كان الدور الديني الرسالي لفاطمة الزهراء (ع) دوراً عظيماً لم تقلله قاعدة تحمل الرجل مسؤولية القيمومة على المرأة.

بمعنى آخر، ان فاطمة الزهراء (ع) كانت تطيع زوجها علي (ع) وتنتظر منه القيام بمسؤوليته المالية التي حددتها قاعدة القيمومة الشرعية، ولكن تلك الطاعة وتلك القاعدة لم تقلل اصلاً من العظمة الرسالية لفاطمة

(⁵³) سورة النساء: آية 34.

الزهاء (ع). وهنا يكمن الدرس الذي ينبغي ان نتعلمه من سلوكها الرسالي (ع). فطاعة الزوج والامثال لقاعدة القيمومة لا يتقاطع مع عظمة المرأة دينياً ومع شرفها وعلمها وعصمتها في فهم احكام الشريعة. وقد حارب الاسلام التطرف البدوي الذي كان يهين المرأة ويضعها في الدرجة الثانية من السلم الاجتماعي. وقدم لنا مثلاً رائعاً للمرأة المؤمنة التي وهبت ادراكاً دينياً كاملاً، وهو مثال فاطمة الزهراء (ع). ولم ينقل لنا التأريخ الاسلامي حتى رواية كاذبة عن صراع الانوثة والذكورة في الاسرة العلوية. فقد كانت فاطمة (ع) مطيعة لزوجها، وكان علياً (ع) يكنّها الاحترام اللائق بها. وعندما تكلمت (ع) حول ارث ابيها (ص) بعد وفاته (ص)، في المسجد وبحضور ابو بكر وعمر، لم يمنعها (ع) من ذلك. ولم يعارضها عندما رفضت مقابلة الخليفة الاول بعد وفاة ابيها (ص).

3- التركيبة العلوية:

لا شك ان للزواج اهدافاً اجتماعية ودينية وفلسفية. فالبناء بين الرجل والمرأة لا بد ان يتم ضمن الضوابط الشرعية، والذرية تحتاج الى فترة طويلة نسبياً من العناية الشخصية والاهتمام من قبل الابوين، وتحتاج ايضاً الى عملية تهئية دينية للدخول في المعترك الاجتماعي لاحقاً. ان العصمة التي جمعت علياً وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين (عليهم السلام جميعاً) في اسرة واحدة، تعدّ رابطة دينية لم يسبق لها مثيل في الاديان التوحيدية. فالمجتمع الانساني يعيش فترة أطول من حياة العائلة الواحدة. ولكن اسرة امير المؤمنين (ع) عاشت وستعيش بعمر المجتمع البشري على الارض. ولذلك فاننا نقول بأن اهل بيت النبوة (ع) أكبر من التأريخ وأكبر من الحياة التي يحويها في اطار الزمن وقيده المحدود. فاننا بعد اربعة عشر قرناً نكتب عن حياة أمير المؤمنين (ع) وأسرته كما لو كانت تعيش بيننا اليوم. وسوف يفعل احفادنا كما فعلنا ان شاء الله تعالى. وقد فعل اجدادنا ذلك في الماضي ايضاً، جزاهم الله خيراً. وبكلمة، فان تركيبة الاسرة العلوية لم تنشأ لتعيش مثلاً لزمانها، بل انما انشأت لتعيش مثلاً للأجيال المتلاحقة الى يوم القيامة.

وقد كانت حياة الاسرة شاقّة فيما يتعلق لسد الحاجات الجسدية من طعام وكساء، لان الاسرة العلوية كانت مصممة لكي تكون مثلاً تاريخياً للأجيال، وهو (ع) القائل: «ان الله تعالى فرض على ائمة العدل ان يُقدِّروا انفسهم⁵⁴ بضعفة الناس، كيلا يتَّبِعَ⁵⁵ بالفقير فقره!»⁵⁶.

(⁵⁴) يُقدِّروا انفسهم: أي يقيسوا انفسهم.

(⁵⁵) يتَّبِعُ: يهيج به الالم فيهلكه.

وكانت عائلة سامية من ناحية العلاقات الانسانية. فقد حكمت الحياة العائلية للأسرة العلوية ضوابط اخلاقية دينية، منها: علاقة علي (ع) بفاطمة (ع)، وهو القائل (ع): «الغريبُ من لم يكن له حبيب»⁵⁷. وعلاقة فاطمة (ع) بالحسين (ع) واختيهما زينب (ع) وام كلثوم، وهو القائل (ع): «البشاشةُ حِبالةُ المودة»⁵⁸. وعلاقة الحسين (ع) واختيهما فيما بينهم، وهو القائل (ع): «التودُّدُ نصفُ العقل»⁵⁹. وعلاقة النبي (ص) والامام (ع) بهم جميعاً، وهو القائل (ع): «مودة الاباء قرابة بين الابناء، والقرابةُ الى المودةِ أحوجُ من المودةِ الى القرابة»⁶⁰.

وإذا اضمنا الى تلك العلاقات الحميمة: الادراك الكامل لمعاني الدين واحكامه وملاكاته، لتبين لنا ان آل البيت (ع) اختبروا العلاقات الانسانية من حيث تعاملهم مع الاخ او الاخت او الام او الاب خصوصاً بالنسبة للحسين (عليهما السلام). نعم عاش رسول الله (ص) يتيماً وليس له اخ او اخت، ولكنه كان ملهماً يتصرف بما يمليه عليه الوحي. اما ائمة الهدى (ع) فكان علمهم مستلهماً من تعاليم رسول الله (ص). ولقد تبلور فضلهم من خلال قدرتهم على استيعاب ذلك العلم والعمل به.

وتلك العلاقات داخل الاسرة كانت تعبّر عن عقب النبوة واخلاقية الامامة والعصمة، وعن دور الدين واحكامه في بناء مستوى راقٍ من الاخلاق والفضيلة والتقوى والتعبد والاتصال بالخالق عزّ وجل عبر الصلاة والصيام والدعاء وترك الملهيات الدنيوية. لقد كانت العلاقة الاسرية في ذلك البيت المبارك نظاماً للاحكام الشرعية، ولم يكن تجمع اولئك الطاهرين مجرد تجمع عشوائي لافراد جمعتهم العلاقة الجسدية ورابطة الدم. بل ان اجتماعهم كان اجتماع العلم والحكمة والقرآن. فكان اهل الكساء، وهو تعبير عن الكساء الذي جمعهم⁶¹، تعبيراً رمزياً من الاختبار الالهي لتلك النخبة الطيبة من الاطهار الذين لا يعرفون غير عبادة الله والجهاد في سبيله والتضحية من اجل نصرته دينه. وكان المعادلة تقول ان كلمة: «اهل البيت (ع)»، تعادل: «العبادة، والجهاد، والتضحية».

وكانت فاطمة (ع) لا تلعب دور الام الحنون التي تظهر حنانها لاطفالها فحسب، بل كانت تغذيهم احكام الدين والاخلاق وضوابط العصمة. وكان علي (ع) يربي الحسين (ع) على الامامة ودور الدين في

⁵⁶ «فتح البلاغة». حطية 209 ص 408.

⁵⁷ م. ن. - كتاب رقم 31 ص 513.

⁵⁸ م. ن. - باب المختار من حكمه (ع) رقم 2 ص 602.

⁵⁹ م. ن. - رقم 135 ص 632.

⁶⁰ م. ن. - رقم 299 ص 668.

⁶¹ «الخصال» - للشيخ لاصدوق. ج 2 ص 550.

المعترك الاجتماعي. بينما كان رسول الله (ص) يمدّ الاسرة الشريفة بمختلف وسائل الامداد الروحي السماوي وينقلهم الى عالم الاخلاق المثلى في كل لحظة من لحظات وجوده.

4- الاسرة الشريفة: قمة القيم الاخلاقية

وبكلمة، فقد كانت تلك الاسرة الشريفة محطة لانظار علماء الكلام، والقانون، والشريعة، والاخلاق، والفلسفة. لانه لم تشهد الانسانية عائلة تجمعت فيها كل صفات الشرف والكمال والنبوة والامامة كأسرة أصحاب الكساء وهم النبي (ص) وعلي وفاطمة والحسنان (عليهما السلام). خصوصاً وان تلك الاسرة المتكاملة كانت تسكن على ارض مسجد واحد وهو المسجد النبوي.

ولا شك ان التضامن الروحي الذي كان يشد افراد الاسرة المعصومة لم يكن تضامناً عضوياً بحتاً يدور حول «عقد الزواج» المبرم بين علي وفاطمة (عليهما السلام) تحت نظر والدها رسول الله (ص)، بل كان تضامناً في اصل الدين وتضافراً بين النبوة والامامة من اجل الاسلام. أي ان الدعم السماوي لزواج علي (ع) بفاطمة (ع) والذي اعلنه رسول الله (ص) في غير مرة، كان دعماً من اجل منصب الامامة. فقد كان «عقد الزواج» الذي باركته السماء كان من اجل دعم تلك المنزلة الرفيعة التي نالها علي (ع). وحتى الواجبات البيئية، والحقوق، والالزامات الشرعية والاخلاقية بين اعضاء الاسرة كانت تمثل القيم الدينية بأعلى صورها.

ففاطمة الزهراء (ع) كانت تقضي الليل في العبادة والدعاء والاستغفار، وكان علي (ع) يقضي الليل في الصلاة والدعاء والتهجّد أيضاً. وبينما كانت (ع) تعمل جاهدة من اجل ترتيب القضايا المنزلية، كان (ع) يعمل ويكدح خارج البيت من اجل كسب لقمة العيش. وكانت فاطمة (ع) تقبل بالقليل من الطعام والشراب، وزوجها (ع) زاهد لا يتعدى طعامه الخبز اليابس، وأولادها يطون الليل جوعاً وهم ساجدون لله سبحانه وينظرون الى طعامهم يسلم الى المسكين والفقير والاسير وهم مطمئنون راضون بقدر الله، وابوها (ص) خاتم الانبياء وأفضل البشر على وجه الارض يأكل من خبز ابنته (ع) ولم يدخل في فمه طعام منذ ثلاثة ايام. فأني قدوة وأي مثل أعلى تقدمه لنا عائلة رسول الله (ص)؟

لقد كان بالامكان تبديل تلك الحياة العائلية الى حياة الطبقة الوسطى على الاقل، الا ان رسول الله (ص) وعلياً (ع) وفاطمة (ع) لا يقبلون بذلك. لان اهل بيت النبوة (ع) ارادوا ان يكونوا مثلاً ابدياً للنزاهة والطهارة والعفة والزهد والتقوى. وقد اكرمهم الله تعالى لانهم كانوا اتقى الناس وأفضلهم وأقربهم الى السماء.

ومن نافلة القوم ان نذكر ان البيت النبوي كان مثلاً للسلام الديني والوئام الاجتماعي، فلم يكن هناك صراع على ملك زائل او صراع بين الانوثة والذكورة او صراع على ملذات الدنيا كالذي رأيناه بين هند وابي سفيان، حيث زعمت بأنها لم تسرق في عمرها شيئاً الا ما كانت تأخذ من مال زوجها ابي سفيان⁶². او الذي رأيناه بين عمر بن الخطاب قبل اسلامه وبين اخته، حيث لطم وجهها لطمه فشجّه وأدماه. ونحوها كثير من اساليب الصراع العضلي والفكري بين الرجال والنساء.

وليس غريباً أن نستوعب الفارق اذا فهمنا بان الاسرة العلوية كانت تمثل قيم الدين بانصع صورها واجلى معانيها في التعاون والحب والتعبد والزهد والتقوى والجهاد في سبيل الله. بمعنى ان تلك الاسرة عكست السلوك المثالي الذي ينبغي ان يُحتذى من قبل المؤمنين بالاسلام وبرسوله (ص) وبولاية امير المؤمنين (ع).

وما كان يميز تلك الاسرة العلوية لها كانت تعيش اجواء الثراء الروحي والارتباط بالله تعالى في الوقت الذي كانت تعيش فيه الغربة الاجتماعية. فعندما كان آل الرسول (ص) يجاربون نظرياً الظواهر الجاهلية العالقة في المجتمع الجديد، كانوا في الوقت ذاته يخوضون جهاداً عملياً مريراً ضد مجتمع تربى على الاعراف الجاهلية القبليّة. ولذلك كانت مهمتهم الاجتماعية والدينية صعبة وشاقة.

ولكن الذي خفف من مشقة الصراع على الساحة الاجتماعية هو ان الارضية الدينية للانسجام النفسي والاجتماعي في الاسرة العلوية كانت ارضية صالحة، تحقق اهدافها في بناء مجتمع اسلامي مصعّر يذوب تماماً في المثاليات الدينية.

كفاح الاسرة العلوية

يمثل الطعام وطريقة تحصيله وتناوله اهم اساليب الكفاح في الحياة الدنيوية. فالاسرة الزاهدة قد لا تكثر لالوان الطعام عدا ما يسد رمقها ويمدد في مسيرتها اللاحبة نحو العبادة وذكر الله تعالى. وكان جوع العترة الطاهرة جسدياً يقابله امتلاءً روحي، وطمأنينة بقضاء الله سبحانه، ورضى بحسن التوجه اليه.

1- معنى الجوع في العائلة:

ان النقص في المواد الغذائية للعائلة يؤدي الى حرمان افرادها من حقهم الطبيعي في التغذية وتناول الطعام. والجوع الطبيعي قد يؤدي الى حالات مرضية تنتهي الى الموت. ولكن جوع العترة الطاهرة (عليهم السلام) كان من نوع آخر. ولنطلق عليه بـ «الجوع التعبدي». فقد كان جوعاً بالاختيار، او حرماناً من

(⁶²) «الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية» - ابن الطقطقي ص 103.

اكل الطعام بالارادة لانشغالهم بقضية اهم وهي العبادة او الجهاد في سبيل الله او الشوق للحياة الآخرة. وتلك الحالة الجسدية النفسية ينبغي ان تُفهم على اساس انما لَوْنٌ من الوان التقوى، وحب التقرب الى الله عزّ وجلّ عبر الزهد من ملذات الدنيا ومطايبيها.

وعلى أي حال، فان الجوع يُضعف الانسان ويقعده عن القيام بمهامه، فكيف كانت العترة الطاهرة (عليها السلام) تشدّ الاحجار على بطنها في الوقت الذي كان تجاهد فيه الظواهر الوثنية والجاهلية؟ والمشهور عن رسول الله (ص) وعلي (ع) ان الجوع لم يشنهما عن الدخول في ساحات الوغى وقتال المشركين دون ان يدخل في جوفهما قطعة خبز يابس او حفنة تمر زهيدة لا يام.

لا شك ان هذا الامر من الامور الخارقة للعادة التي لا نجد لها تفسيراً غير تعلّق العترة بالله سبحانه وتعالى. فهو تحمل ما لا يطاق بالنسبة الى عامة الناس. فلا يستطيع الانسان العادي — مهما اوتي من قوة الصبر — ان يصبر على طعام، اختياراً، عدة ايام دون ان يتناول شيئاً. ثم يقتحم جبهات القتال ليقاتل المشركين بضرواة وشجاعة لم يسبق لها مثيل.

ومن زاوية أخرى، نقول ان الجوع عند الفرد العادي يؤدي الى الخمول والضعف والكسل. بينما كان جوع اهل البيت (ع) — الذي كان اثرًا من آثار الزهد — باعثاً للعبادة والعمل والنشاط والجهاد في سبيل الله وحمل السلاح ومقاتلة اعداء الدين.

ولم يكن الزهد في طعام الاسرة العلوية مؤقتاً أو منحصرًا بفترة معينة، بل استمر في جميع مراحل حياته (ع) وبضمنها فترة الخلافة العصبية. فكان زهده (ع) مثار اعجاب الدنيا. فكيف يستطيع امام الحق (ع) تحقيق العدالة ما لم يسحق ذاته بمرارة الجوع والحرم. وهو الذي قال لاحقاً: «... او بيت مبطاناً وحولي بطون غرثى (جائعة) واكباد حريّ (عطشى)، او اكون كما قال القائل:

وحسبك داءً أن تبيت ببطنة⁶³ وحولك اكباد تحن الى القد⁶⁴

أأقع من نفسي بأن يقال: امير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش (أي خشونته)...»⁶⁵.

بينما لم نلمس ذلك في بقية حكام المسلمين وامرائهم الذين كانوا يشبعون انفسهم وعوائلهم ومتعلقهم وذويهم بالطعام على اقل التقادير، خصوصاً اولئك الذين نازعوا علياً (ع) ولايته وسلبوها منه ظلماً. ولكن

⁶³ (البطنة: البطر والأشر).

⁶⁴ (القد: سير من جلد غير مدبوغ).

⁶⁵ (فتح البلاغة). كتاب 45. الى عثمان بن حنيف ص 533.

امام الحق (ع) ابي الا ان يساوي نفسه مع افقر فقراء المجتمع الاسلامي. فكان يصنع لهم الطعام، ويمنح لهم العطاء، ويبقى وعائلته يشدون الاحجار على بطونهم.

2- الطعام وأساليب استهلاكه في العائلة:

ان طريقة استهلاك الطعام ليست طريقة فلسفية او بيولوجية، بل هي سلوك ثقافي ديني بالدرجة الاولى، حيث يلتزم الفرد بممارسته على ضوء احكام الرسالة التي يؤمن بها. فالافراد في مجتمع غير متدين يأكلون كل شيء قابل للاكل، وفي كل مكان، ومع أي فرد، وفي كل موقف. ولكن الدين حدد طبيعة الطعام في الحلية والاستحباب، والمقدار الذي يسمح بتناوله عن طريق الاعتدال، وما يقال قبل تناول الطعام وما يقال بعده من بسملة ودعاء وتمجيد لرازق الطعام عز وجل.

ومن هنا اصبح الطعام في عوائل الانبياء والاولياء (ع) - نوعية وحجماً - يمثّل لونا من الوان الزهد والتقوى وقوة الاتصال بالله عز وجل. ذلك ان السيطرة - بهذا الشكل الصارخ - على شهوة البطن تفتح بوابة القلب على الخالق تعالى، فتستثمر بالعبادة وطاعة الله سبحانه. والعائلة التي تأكل الخبز وتأتدّم بالملح والخل، وهي ما عليه من منزلة سماوية واجتماعية رفيعة، لا بد ان تمثل رمزاً دينياً ومثلاً اعلى للمشاعر الانسانية حيث كانت تكتفي غالباً بالغذاء الروحي دون الغذاء الجسدي.

ان علياً (ع) عندما كان يجوع ليشبع الآخرين، كان ملاك حكمه ان الطعام ينبغي ان يشبع الجميع فلا يبقى فقير يتضور جوعاً وبجنبه غني يئن من التخمة. فالفقر هنا، اذا وجد، فانه يعكس الفشل الاخلاقي الذي يتحمل مسؤوليته النظام الاجتماعي والسياسي الحاكم على الناس.

الا ان الاسلام - الذي كان جوهر نظام دولة امير المؤمنين (ع) - لا يرضى ان يبيت القائد مبطاناً وحوله بطون غرثى. فكان دستور حكومته (ع) يصرّح بان يشبع الناس اولاً عبر توزيع الثروة الاجتماعية بالعدالة والانصاف. وكان شدّ الحجر على البطن من الجوع تمريناً قاسياً في عائلة امير المؤمنين (ع) من البداية. ونفس المنطوق ينطبق على الحسين (ع). ذلك ان تربية الحسين (عليهما السلام) على الاكتفاء الروحي دون النهم الجسدي هو هيمتتهما لمنصب الامامة الروحية للمسلمين لاحقاً.

ولا شك ان طريقة فاطمة (ع) في توزيع طبق خبز الشعير لزوجها واولادها يكشف عن العلاقة المثالية بين الزوجة التقية العابدة تجاه اعضاء أسرتها. فاجتماع الاسرة الطاهرة على طعام بتلك البساطة يعبر ايضاً عن احترامهم للنعمة التي انعمها الله سبحانه عليهم واشراكهم جميعاً في تناول ذلك الطعام البسيط. فكانت المائدة تقياً ويوضع عليها الخبز والملح، وكان (ع) يفتتح باسم الله ويختتم باسم الله ويحمد الله ويشكره على النعمة.

ويمثل قوله (ص): «اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرّق بيننا وبينه، فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا ادينا فرائض ربنا»⁶⁶.

ولا يوجد في المجتمعات، كما يقول علماء الانثروبولوجيا والاجتماع، انسانٌ يعطي كل شيء يملكه الى الآخرين دون ان يُبقي لديه شيء. لان غريزة الانسان تدعوه لاشباع نفسه اولاً، او لابقاء شيء من الطعام على الاقل يسدّ به رمقه. ولكن علياً (ع) اعطى كل طعامه وطعام عائلته ثلاثة ايام متوالية للمسكين والفقير والاسير، ومنح خاتمه وهو راعع للفقير الذي جاء يسأل في مسجد رسول الله (ص) وهو لا يملك غيره، وأشبع الفقراء ايام خلافته ونام جائعاً يشدّ الحجر على بطنه. فأبي مثالية اخلاقية تلك التي مارسها امير المؤمنين (ع)؟

ان القوة الدينية التي تدفع الانسان وهب طعام لا يملك غيره للآخرين دون ابقاء شيء له او لعائلته هي قوة عظيمة دون شك. والاقوى منها ان الواهب كانت لديه القدرة على اقتناء شتى الوان الطعام، ولكن تعلقه الروحي بالخالق عزّ وجلّ كان اقوى من غريزته في الشبع والامتلاء. فكان (ع) يفضل الجوع اختياراً من اجل ان يساوي نفسه بأضعف الرعية، وكان يشدّ الحجر من اجل ان يبقى الرابط بينه وبين ربه متصلاً قوياً لا تزعره الرغبات ؛ وهو القائل (ع): «ولو شئتُ لاهتديتُ الطريق، الى مُصَفّي هذا العسل، ولُبَابِ هذا القمح، ونسائج هذا القَرِّ (الحري). ولكن هيهات ان يغلبني هواي، ويقودني جسعي (حرصى) الى تحيّر الاطعمة، ولعل بالحجاز، أو باليمامة من لا طمع له في القرص (الرغيف) ولا عهد له بالشبع...»⁶⁷.

ومن هنا كانت طريقته في تناول الطعام والتعفف عن الامتلاء والزهد فيه، تحمل رمزاً دينياً يفصح عن ضرورة اشباع الناس جميعاً في المجتمع الديني، وعن احترام النعمة التي انعمها الله تعالى عليهم، وعن حسن التخفف من ثقل اعباء الحاجات الجسدية، والتوجه بالمقابل نحو اشباع الحاجات الوحية.

3- مشقة فاطمة الزهراء (ع):

تعني المشقة المنزلية: حالة من حالات تحمل ما لا يطاق، او الاقتراب من العجز عن اداء التكليف بشكله المرضي الكامل، تختبره المرأة في فترة من فترات حياتها. والمشقة تتعلق بالعمل الذي ينبغي انجزه اكثر مما تتعلق بحالة المرأة المكلفة بانجاز التكليف. فقد يتزاحم عملاان لا بد من انجزهما سوياً، كأداء حق الله سبحانه وحق الزوج مثلاً. فهنا لا خيار للمرأة الا بتقديم احدهما على الاخر. فيكون تقديم حق الزوج على حق الله في

(⁶⁶) «الكافي» ج 6 ص 287.

(⁶⁷) «فتح البلاء» كتاب 45. الى عثمان بن حنيف ص 532.

العبادة إخلالاً لحقوق العبودية. فالمشقة هنا أكثر ارتباطاً بطبيعة العمل الذي ينبغي انجازه وكماله، مما هي مرتبطة بحالة المكلف. فقد تتحمل المرأة انجاز العمل مع تعبها، ولكنها قد لا تتحمل انجاز ذلك العمل ناقصاً. فتكون المشقة مرتبطة بنوعية التكليف وعدم القدرة على انجازه كاملاً.

وبكلمة، فان مشقة فاطمة (ع) عندما طلبت من ايها (ص) خادماً، كانت متعلقة بالعمل المنزلي الذي تخاف عدم انجازه، مع ما هي عليه من العبادة والتسك والذكر. فقد كانت تخشى ان المشقة التي كانت تمر بها في الجمع بين التعب والاهتمام بشؤون الاسرة العلوية وقضايا الدعوة للاسلام قد تجعلها عاجزة عن اداء وظيفتها البيئية، وبذلك فقد يחדش ذلك حقوق زوجها علي (ع).

والمشقة تعني ايضاً اضطراباً في توقيت الاعمال البيئية وترتيبها، كما لاحظنا في رواية انس بن مالك⁶⁸ عن بطة بلال عن الاذان لصلاة الصبح. فقد كانت (ع) تشعر بالتراحم بين ان تطحن شعيراً كي تحبز لافطار الصباح، وبين ان تسقي صبيها حليباً. وهنا ازدحم المطلبان، فجاء بلال وطحن الشعير. ولا شك ان ذلك التضارب في التوقيت كان قد خلق وضعاً نفسياً وشعوراً بالأسف والاعتذار على عدم انجاز الاعمال في اوقاتها ترتيباً. ولذلك فقد حيا رسول الله (ص) بلالاً وقال له: رحمتها رحمتك الله.

وبالاجمال، فان مشقة فاطمة بنت رسول الله (ص) كانت حالة سلوكية، فضلاً عن كونها حالة فلسفية، بمعنى ان مشقتها كانت من آثار كمالها وعفتها وزهدا وحبها للمحافظة على حقوق زوجها (ع) وعائلتها كاملة دون افراط او تفريط. والجمع بين ذلك وبين العبادة المشهودة لاهل البيت (ع) أمرٌ صعب. ولذلك فقد كان أداؤها الشرعي الطاهر في تأدية وظيفتها الشرعية والمنزلية نابعاً من حالة نفسية قوية هائلة في تحمل المصاعب والشدائد، والرضا بقدر الله سبحانه وتعالى، ومحاولة أداء الواجب كاملاً في احسن الاحوال.

زي فاطمة الزهراء (ع)

ان زي المرأة المقبول عقلاً وشرعاً هو الزي الذي يكسبها احتراماً اجتماعياً، ويحفظ لها جمالها وجلالها وعفتها. واللباس الديني للمرأة هو لباس ثابت التصميم لتغطية جسد المرأة عدا الوجه والكفين. وكل ما يضاف الى ذلك التصميم الاساسي، يتعلّق بدرجة رئيسية بالشعور والذوقية. وبدرجة أخصّ بأن كل قطعة تضاف الى ذلك الزي أو تحذف منه ترتبط بالذوق العام والثقافة الاجتماعية.

(68) «مسند أحمد» باسناده عن انس بن مالك ج 3 ص 150.

1- أسلوب الحجاب الشرعي:

ولا شك ان لحجاب المرأة جذوراً دينيةً شرعيةً راسخةً، لان زي المرأة قضية اجتماعية قبل ان يكون قضية شخصية محضة. ولذلك فعندما ننظر الى زي فاطمة الزهراء (ع) فاننا نفعل ذلك من اجل فهم صورة الزي الديني للمرأة المسلمة . فهي التي تمسكت (ع) بأصل الحجاب الشرعي في قوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ⁶⁹ عَلَى جُيُوبِهِنَّ⁷⁰ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ...)⁷¹ ، بالرغم من اختلاف الزي المقبول شرعاً عن الزي العربي المقبول عرفاً. وسيبقى هذا الزي الشرعي قائماً الى يوم القيامة بالرغم من التغيرات الاجتماعية التي طرأت وسوف تطرأ على المجتمعات الانسانية عبر السنين. بمعنى ان المجتمع الاسلامي صُمم من اجل ان يكيف نفسه مع زي فاطمة الزهراء (ع) الذي يمثل الحجاب الشرعي الصحيح.

ونستلهم من الآية الشريفة التي ذكرناها آنفاً ان غضّ البصر يشمل الرجال والنساء بقوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) الآية، وإن حفظ الفروج يشمل الرجال والنساء أيضاً بقوله تعالى: (... وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ... وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...). بينما انحصرت الاحكام اللاحقة بالنساء وهي: عدم ابداء الزينة بشروط عبر قوله: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ... وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ...)، والحجاب بقوله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ). وبذلك يكون الحجاب مقروناً بغضّ البصر، وحفظ الفرج، وعدم ابداء الزينة الا بشروط . فقضية الحجاب اذن ليست منفصلة عن النية السليمة والسلوك الاخلاقي من قبل الرجال والنساء في المجتمع.

اذن، ان اهم مسألة في قضية الحجاب الشرعي هو ان المرأة ينبغي ان تتقبل نفسياً ذلك الزي. فليس الزي الشرعي يعني تعبيراً عن مشاعر الطاعة والتسليم للشريعة، ويعني ايضاً تعبيراً عن مشاعر الحب للنظام الشرعي الذي اوجب الحجاب حفظاً لسلامة المرأة وعفتها.

ولا شك ان لبس الحجاب الشرعي يفرض على المرأة سلوكاً شرعياً متناسباً مع التكاليف الدينية في العبادات والمعاملات . فهو بالاضافة الى كونه رمزاً تعبيرياً عن العفة والنظافة الاخلاقية والاجتماعية، فانه يحفظ المرأة من صراع الرغبات غير المشروعة التي لا يقرّها الدين. ذلك ان الدين يفتح الباب للزوجين للتمتع

⁶⁹ (الْحُمُرُ: القناع.)

⁷⁰ (الجيب: الصدر.)

⁷¹ (سورة النور: آية 30 - 31.)

بكافة صورته المشروعة ومنها: الزي الزوجي _ الذي يضيف على جمال النفس جمالاً اضافياً _ فانه يحق لهما ارتداؤه من اجل التكامل واشباع ما تمليه رغبتهما. وعندما تنزي المرأة بالزي الذي يجعلها امام زوجها ، فانه يخدمها _ في الواقع _ في اكتشاف ذاتها ومواطن جمالها ؛ أي ان ما يُعدُّ جميلاً ومثيراً بين الزوج والزوجة ينبغي ان لا يخرج من اسوار البيت الزوجي. لان الشارع العام ملك المجتمع، وفيه يتعين على المرأة لبس الحجاب الشرعي.

فعندما نتحدث عن المرأة في المجتمع، فاننا نتحدث عن الحجاب الشرعي، وعندما نتحدث عن المرأة في الاسرة فاننا نتحدث عن ابقاء المشاعر الطيبة بين الزوجة وزوجها ضمن الدائرة الاسرية الضيقة. فلا يمكن شرعاً للمرأة التعبير عن عواطفها للعالم الخارجي، عبر انتهاك قانون الحجاب. وهذا المقدار كان متمثلاً في البتول (ع). فقد كان حجابها في غاية الدقة، فلم يرو ان احداً رأى وجهها او كفيها. ولا عجب فهي من سلالة بيت النبوة والوحي والتنزيل والقرآن المجيد: مع ان القاعدة جواز اظهار الوجه والكفين. ولكن اهل بيت النبوة (ع) لا يعملون الا بالمستحبات ويزيدون عليها.

اننا لو نظرنا الى الاسر الملكية الحاكمة في التاريخ، لرأينا ان نساءها يلبسن ارقى الازياء، وأفضل ما يُصمم من لباس. والاصل في ذلك انهم يريدون ان يبهروا الناس باسلوب حياتهم وغطهم المعاشي المتميز. ولذلك فهم يبدلون ازياءهم في كل حين من الزمن. ولكن هؤلاء الملوك لا يمتثلون لواجب ولا يتبعون ديناً، الا اللهم ما كان يصب في خدمة مصالحهم. ولذلك اشتهر في العلوم الاجتماعية: ان الملوك والامراء والملكات والاميرات حراس اوفياء لظاهرة تبدل الازياء.

ولكن الدين ورسالته الخالدة جعل من فاطمة الزهراء (ع) قدوة في ارتداء لباس التواضع، لباس العفة، لباس الفقراء وهي اغنى امرأة في الكون. فأبوها (ص) لو أراد تملك الارض لفعل. ولكنه الزهد والتقوى والتعفف عن حب الدنيا ومتعلقاتها. ولذلك كان ثوبها (ع) من ابسط ثياب الناس وأقلها كلفةً.

ان بساطة لباس المرأة المسلمة التي تأخذ من فاطمة الزهراء (ع) قدوة لها، يقلل من حجم الاستهلاك الاجتماعي للموارد الطبيعية. وهو بالتأكيد يفرز قضيتين:

الاولى: استمرارية الحجاب الشرعي باعتباره تكليفاً دينياً على المرأة، بالرغم من التغيير الاجتماعي الذي يصيب المجتمعات.

الثانية: انه لا تراحم بين اناقة المرأة في بيتها وامام زوجها، وبين الحجاب الشرعي عندما تخرج المرأة الى الساحة الاجتماعية. ولذلك فان فاطمة الزهراء (ع) عندما خرجت الى المسجد بعد وفاة أبيها (ص) بحضور الخليفة الاول اهتز لها المجلس وهي محجبة بحجاب الاسلام من أعلى رأسها الى أخمص قدميها.

2- وظائف الحجاب الشرعي:

ولا شك ان الدور الاساسي للحجاب الشرعي هو حفظ المرأة من تيار العادات القبلية الجاهلية وصيانتها من التحلل الاخلاقي. وهو بذلك يقدم ثلاث وظائف:

الاولى: ان الحجاب الشرعي يعرض تجانساً نفسياً واجتماعياً بين النساء المسلمات في المجتمع. فالحجاب الشرعي يعكس التماسك الاخلاقي للتجمع النسوي داخل المجتمع الاسلامي. ولو اتبعت كل امرأة لباساً خاصاً بما تهيؤ نفسها لاضطربت الحياة الاخلاقية للمسلمين.

الثانية: ان الحجاب الشرعي يقدم مسيرة مستمرة للباس النسوي الاجتماعي. وصلة الحجاب بالماضي والمستقبل يذكرنا دائماً بحيوية الاسلام في الماضي والحاضر، ويعطينا الامل بان اجيالنا سوف تسترشد بهدي الاسلام وتتبع خطواته. والحجاب _ باعتباره واجباً شرعياً على النساء _ يعدُّ من الثواب التي لا تقبل التغيير. وبذلك يكون التغيير الاجتماعي خاضعاً لمتطلبات الحجاب الشرعي للمرأة لا العكس. وبكلمة، فان حجاب المرأة المسلمة هو زي اليوم كما كان زي الامس، وكما سيصبح زي الغد باذنه تعالى.

الثالثة: كما ان الحجاب الشرعي يمنع الرغبات الغريزية غير المشروعة في الشارع الاجتماعي، فان زي التجميل الذي ترتديه المرأة امام زوجها يبقى اصل الذوق والاناقة والحركة بين الرجل والمرأة داخل الاسرة. ان زي فاطمة الزهراء (ع) كان يتضمن شكلاً الزامياً للحجاب الديني، وكان يتضمن ايضاً ذوقاً شرعياً للزي النسوي. فالذوق الاسلامي العام في العفة والاخلاق والامانة والاخلاص والتقوى ينسجم مع مفردات ذلك الحجاب.

تعدد الزوجات بعد فاطمة (ع)

لاحظنا ونحن ندرس الحياة العائلية للامام (ع) انه تزوج بعد استشهاد فاطمة الزهراء (ع) بالعديد من الإماء والارامل وغيرهن من النساء، فما مغزى التزوج بهذا العدد من الإماء او ملك اليمين؟ وما مغزى تزوج الامام (ع) من الارامل؟ وما مغزى التعدد بشكله العام؟ بحيث يكون عدد زوجاته اثنتين وعشرين زوجة: أربع زوجات وثمان عشرة ملك يمين. نتحدث اولاً عن زواج الإماء ومعنى العبودية والتحرر. ثم نتحدث بعد ذلك عن تعدد الزوجات.

1- تزوّج الإمام:

يعدّ التزوج من الإمام، انسب الطرق لتربية تلك الشريحة من الافراد التي أُريد لها الدخول في المجتمع الاسلامي والاندماج في عقائده وافكاره. ومع ان صورة الرق تبدو موحشة للوهلة الاولى، الا ان آثارها في كشف رحمة الاسلام للعبد أو الأمة هي التي جعلت الإمام والعبيد من اكثر الناس تعلقاً بالاسلام.

أ- معنى العبودية والتحرر:

يمكن تعريف العبودية او الرقيّة بأنها وضع يكون فيه الانسان تحت سلطنة ونظر انسان آخر أقوى، خلافاً لطبيعة الاشياء القاضية بجرية كل فرد. ويسمى الاول بـ «العبد» أو «الأمة»، ويسمى الثاني بـ «السيد». ويكون السيد مالكا للعبد والأمة فهما «ملك يمين». ذلك لان العبودية تبطل حقوق الانسان القانونية او التشريعية في الحرية والاختيار. وبذلك يكون العبد مسلوب الاختيار والارادة تماماً فيما يتعلّق بالاشياء الخارجية غير القلبية. فهو مجرد ملك بيد انسان آخر أقوى. وسلب الشخصية الحقوقية من الانسان تفقد العبد او الأمة حرية اختيار الزوج، الا انها تُبقي الحياة الروحية منفتحة للتأثر والتغيير من اجل تحقيق الهدف الذي شرّعت من اجله عملية الرقّ.

ولكن في البداية لابد لنا من معرفة حقيقة مهمّة وهي ان الرقيق كانوا محاربين منهزمين اوتي بهم وبممتلكاتهم من خارج حدود المجتمع الاسلامي خلال المعارك التي كانوا يخوضونها ضدّ الاسلام والمسلمين. والاسترقاق في الاسلام يعدّ محاولة جادة لقطع جذور الثقافة الوثنية والاجتماعية التي يحملها المحارب ضدّ الاسلام رجلاً كان او امرأة. ولذلك فان الغاء الشخصية الحقوقية للعبد او الأمة هو الغاء للشخصية الوثنية او العلمانية التي يحملها. ومن هذا المنظار فان تزويج الأمة عبر التملك هو افضل الطرق وانسبها لقطع جذور الاحاد والكفر والوثنية. بينما لا يمكن سلب الشخصية الحقوقية بالاسترقاق للفرد المنحرف المسلم داخل المجتمع الاسلامي لان هناك طرقاً اخرى للتعامل مع المنحرفين لا تقل جدية وحسماً مثل القصاص والقتل والقطع والتعزير.

ولاشك ان ألم انقطاع المرأة الكافرة خلال عملية الاسترقاق عن اقاربها وعشيرتها ينجبر بالعلاقة العائلية الجديدة التي يحاول ان ينشأها سيدها وعائلته. وقد كان امير المؤمنين (ع) مثلاً رائعاً لمدى احترام المرأة التي كانت تمرّ بتلك العملية الانتقالية الشاقة حتى تنال الحرية الحقيقية بقبولها الاسلام.

ولذلك فقد جعل (ع) بيته مدرسة لتربية الإمام على الاخلاق الرفيعة. فهنا لا ينبغي ملاحظة عدد الإمام بدون ملاحظة وظيفة الامام علي (ع) في تربيتهم، خصوصاً وان بلاد الاسلام كانت تتوسع في تلك

الفترة ويدخل في الدين الحنيف افواج من مختلف الشعوب والملل والمذاهب. ومن هذا اللحاظ يمكن اعتبار بيت الامام (ع) مدرسة للتقوى والزهد والتعبد لا مجتمعاً للعبيد والائمة والشهوات.

ولا شك ان للاسلام اهدافاً سامية في عملية الرق، ولذلك شجّع على تحرير الرقاب المؤمنة، بل مطلق الرقاب. ففي قتل الخطأ أمر تعالى بكفارة عتق رقبة فقال: (... وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ...)⁷² ، (... فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ...)⁷³ ، (... وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ...)⁷⁴ . وفي حث اليمين المعقودة او المضاة كفارة عتق رقبة مخيرة ضمن امور ثلاثة، فقال تعالى: (... وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ...)⁷⁵ . وفي حكم الظهار كفارة تحرير رقبة، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا...)⁷⁶ .

وفي استحباب نشر الرحمة والاحسان للمبتلين بنوائب الدهر، قال تعالى: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ)⁷⁷ ، وهو يبين كمال عناية الدين بفك الرقاب، وفيه ايضاً قوله تعالى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ...)⁷⁸ ، وجعل فك الرقاب من العتق ضمن موارد صرف الصدقات، فقال: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ...)⁷⁹ .

وبكلمة، فان الرقية في الاسلام لها اهداف اخلاقية سامية، ولا يمكن اخذها بنفس المنظار الذي سارت عليه اوربا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين حيث كانت العبودية العرقية من ابشع ما شهده الانسان من علاقات انسانية ظالمة بين الاقوياء والضعفاء. ولاهمية الموضوع وارتباطه بحياة الامام (ع)، كان لا بد من الاسهاب في مناقشته.

(⁷²) سورة النساء: آية 92.

(⁷³) سورة النساء: آية 92.

(⁷⁴) سورة النساء: آية 92.

(⁷⁵) سورة المائدة: آية 89.

(⁷⁶) سورة المجادلة: آية 3.

(⁷⁷) سورة البلد: آية 11 - 13.

(⁷⁸) سورة البقرة: آية 177.

(⁷⁹) سورة التوبة: آية 60.

ب- الفوارق بين الرق في الاسلام والعبودية الحديثة:

هناك فوارق جوهرية بين الرق في الاسلام والعبودية الحديثة التي مارسها الرجل الاوروي الابيض خلال القرنين الماضيين. ودراسة دقيقة لتلك الفوارق تبين لنا التباين الاخلاقي بين تعاليم السماء وقانون الانسان الظالم. وعندها نفهم مغزى تزوج علي (ع) بذلك العدد من النساء.

1- ان الاصل في الرقية في الاسلام هو ان يتخلص الانسان الذي يمر بتلك العملية، من آثار الشرك ويتهيأ للدخول في الاسلام باعتباره دين الحرية والتحرر من الظلم وعبودية الانسان للانسان. بينما كان الاصل في العبودية التي مارسها الرجل الغربي الابيض هو اعتصار الجهد البدني للعبد اعتصاراً كاملاً في الزراعة والصناعة، رجلاً كان او امرأة، كبيراً كان او صغيراً. خصوصاً عندما افتقد اصحاب رأس المال القوة العاملة الرخيصة، عندئذ اتجهوا نحو استرقاق العبيد من افريقيا السوداء. فالعبودية الاوروبية كانت من اجل استغلال الانسان لاهداف غير نبيلة.

والذي يؤيد ان الرقية في الاسلام هي عملية اخلاقية للتخلص من آثار الشرك ان الفرد الذي يولد مسلماً لا يمكن ان يختبر عملية الاسترقاق، بل ان هناك طرقاً اخرى لمعالجة الانحراف عند المسلم اذا انحرف عن الجادة كالعقوبات او الغرامات او المقاطعة الاجتماعية في الحبس كما ذكرنا ذلك آنفاً

2- ان الرقية في الاسلام لا علاقة لها بلون البشرة، فقد يكون العبد ابيض وقد يكون أسود وقد يكون أصفر. فالمهم ان يمر الانسان المشرك بمرحلة انتقالية الى الاسلام، وتلك المرحلة تسمى رقاً. اما العبودية التي قام بها الرجل الاوروي الابيض فقد كانت مقيدة بلون البشرة وموجهة بالخصوص الى الأفارقة لان لون بشرتهم كان اغمق من لون بشرة الرجل الوروي الابيض . فالعبودية الاوروبية كانت عبودية عرقية بالدرجة الاولى.

3- ان عملية الرق في الاسلام يمكن ان تفهم على اساس انها عملية مؤقتة لان الاسلام شجّع على عتق الرقاب ككفارة في قتل العمدة، والافطار العمدي لاحد ايام شهر رمضان، وحنث اليمين، وظهار الزوج لزوجته. بينما تستمر عملية العبودية عند الرجل الاوروي الابيض بصورة دائمة ؛ فليس هناك امد محدود لانتهاء الرقية. وتلك الفكرة تدعم رأينا في ان للاسلام اهدافاً نبيلة من استحداث عملية الاسترقاق في الحروب، كما لمسنا في الآيات القرآنية الكريمة التي قرأها للتوّ.

4- ان الأمة في الاسلام اذا قاربها سيدها وولدت له ولداً، تصبح أمّاً من الناحية القانونية تسمى «أم ولد» ويلحق الولد بالاب . وبعد استرداد حريتها تبقى العلاقات النسبية والسببية واضحة ومعترفاً بها. بينما يختلف الاسترقاق عند الرجل الاوروي الابيض، فاذا قارب السيد امته فان المولود يكون وليداً غير شرعي. ويترتب على ذلك ان الوليد لا يمكن الحاقه بالاب. وهذا هو مغزى تسمية داعية الحقوق المدنية الاسود

«مالكوم اكس» اسمه بهذا الاسم، لان حرف اكس بالانكليزية يعني مجهولية الانتساب. فأطلق على نفسه هذا الاسم من اجل ادانة العبودية الحديثة والتظلم بأنه لا يعرف اباه الذي قارب تلك المرأة التي ولدته وهي في العبودية.

5- ان الرقية في الاسلام تعني ان الأمة تعيش في بيت سيدها كأى امرأة أخرى لها شخصيتها الانسانية، حتى تتعلم من افراد الاسرة العلاقات الشرعية وأخلاق الدين واحكام الشريعة بينما يعيش العبيد الذين استرقّهم الرجل الاوروي الابيض خارج بيت السيد، وعلى الاغلب في مراض الحيوانات والاصطبلات.

6- ان استمرار العبودية الاوروبية كان يؤدي الى معاناة جسدية ونفسية تؤدي احياناً الى التمرد والثورة والكفر بمعتقدات «السيد» الذي سبب تلك المعاناة للعبيد. واهم ثورة العبيد هي ثورة سنة 1793 م في سانت دومينكو «هايتي» حالياً، والشعور السليبي الذي يحسّ به السود في بلدان الغرب اليوم.

بينما يؤدي الرق في الاسلام في اغلب الاحيان _ وخصوصاً عند ائمة الهدى (ع) _ الى حالة عاطفية من الارتباط بين السيد والعبد كما نجد ذلك عندما كان الامام (ع) يقوم بتحرير الرقاب، او عندما تصدر هفوة من عبد فيقول له (ع): انت حر لوجه الله ونحوها.

ولم يرد في المتون التاريخية ان العبيد والاماء في الاسلام قد قاموا بتمرد او ثورة ضدّ الدين بل ان الذي حصل هو العكس تماماً. فقد آمنوا بالدين بعد انعتاقهم من الرقية، واحتلوا مكائهم الطبيعي في المجتمع، ورجعت اليهم شخصياتهم الحقوقية بعد ان سلبت مؤقتاً في المرحلة الانتقالية.

7- ان العبودية الاوروبية كانت تقتضي حرمان العبد من ثمار جهده البدني، وحرمانه ايضاً من براءة ذريته من العبودية فالاولاد الذين يولدن للعبيد تكتب عليهم العبودية منذ رؤيتهم نور هذا العالم الواسع الفسيح. وهكذا فان العبودية التي مارسها الرجل الاوروي الابيض ضدّ الأفارقة كانت عبودية اجيال لا عبودية جيل واحد. اما الرق في الاسلام فقد كان منحصراً في تغيير الجيل الكافر، وكان الجيل الثاني مسلماً على الاغلب. فلم تكن رقية الاسلام رقية اجيال، بل ان هدفها تصحيح مسار الجيل المشترك حتى تؤمن بقية الاجيال بالواحد القهار عزّ وجلّ.

8- بينما كان الاسلام يحاول جاهداً التخلص من الرقية عبر عتق الرقاب بشئ الوسائل من قبل المؤمنين ، كانت العبودية الاوروبية لا ترى نهاية لذلك النفق المظلم. فكان امداد العبيد _ كيد عاملة مجانية _ يأتي عن طريق الغارات على القبائل الافريقية. وكانت تجارة الرقيق اول مصادر الامداد. بينما كان المصدر الثاني اجبار العبيد على المخالطة ذكوراً واناثاً من اجل الانجاب. وكان الوليد من أب أو من أبوين من العبيد

يُستعبد مباشرة بعد الولادة. اجمالاً، فقد كان الطفل يستلم مقعد امه في الحياة. فان كانت مستعبدة فانه يصبح عبداً. وبذلك فقد كان الطفل البريء يحاكي وضع امه القانوني في كل الاحوال.

9- يقوم العبيد في المجتمع الاوروي الابيض بتنشيط الاقتصاد لانهم اجراء دون مقابل في الزراعة والصناعة ونحوها. فالعملية اذن لها اهداف اقتصادية راسمالية بالدرجة الاولى. اما الرقية في الاسلام فهي عملية لا تنظر للهدف الاقتصادي، بل تنظر للمصلحة العليا للانسان في التهيئة للانعقاد من الشرك والعبودية لغير الله سبحانه.

10- ان الولاء القلبي عند العبد تجاه سيده في العبودية الاوروبية يكاد يكون معدوماً، فالعبد لا يتعاون مع سيده الا تحت الاكراه الشديد. ولو انتهت فترة العبودية _ افتراضاً _ فان الكره المتبادل سيستمر ونراه موجوداً لحدّ اليوم في المجتمعات الغربية. بينما لم نلاحظ ذلك في عملية الاسترقاق في التاريخ الاسلامي. فقد اعتنق اغلب الرقيق الاسلام، خصوصاً اولئك الذين عاشوا في كنف ائمة الهدى (ع).

وهنا كانت الأمة في بيت الامام (ع) تتخلص من آثار الشرك والوثنية، وتتهيأ للدخول في الاسلام باعتباره دين الفضائل والقيم الاخلاقية المثلى. خصوصاً وانها كانت تعيش في بيت سيدها كأى امرأة أخرى لها شخصيتها الانسانية، تتعلم من افراد اسرة الامام (ع) العلاقات الشرعية واحقاق الدين واحكام الشريعة. ولا شك ان الولاء القلبي من قبل الاماء الثماني عشرة في بيت الامام قبل استشهاده (ع) كان محرزاً. ومن المؤكد تأريخياً انهم جميعاً اعتنقوا الاسلام.

2- مغزى تعدد الزوجات:

يقول تعالى بشأن تعدد الزوجات: (... فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفيتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم...) ⁸⁰. فقد اعلن القران الكريم شرعية تعدد الزوجات، أربع كحد أقصى على شرط:

1- ان تمتلك الزوجات حقوقاً متساوية على الاصعدة الشخصية والمعاشية وعلى صعيد العلاقة الخاصة. اما الميول القلبية الداخلية من الزوج تجاه أي من الزوجات، فليس لها اعتبار على المسرح الحقوقي.

2- ان يكون لكل زوجة شخصية حقوقية مستقلة من قبيل ان لكل زوجة استقلالية ذاتية في قضايا تربية الاولاد ونمط الحياة ضمن اطار قيمومة الرجل وطاعته شرعاً.

(⁸⁰) سورة النساء: آية 3.

3- ان يكونن من انساب مختلفة، فلا يجوز الجمع بين الاختين مثلاً.

ومن هنا نلاحظ ان تعدد الزوجات في الاسلام يصب لصالح المرأة لانه ينظر الى القضية الحقوقية التي حُرمت منها. خصوصاً وان التعدد ينشأ غالباً من التزوج بالنساء الارامل أو الثيبات او المطلقات او اللاتي خالهن التوفيق في زواج واحد ناجح. فالتعدد اذن أمرٌ أُريد منه معالجة مشكلة اجتماعية تخص المرأة، ولم يُرد منه حل مشكلة الرجل. وإن كان للرجل مشكلة وتم حلها بهذا الطريق فأمر مستطاب، ولكن أُريد من ذلك حل مشكلة المرأة بالخصوص. ولو أردنا البحث عن علة تعدد الزوجات لوجدنا ان هناك اسباباً وجيهة نلخصها بالنقاط التالية:

1- ان الحروب التي كانت مستعرة في ذلك الزمان، وفي كل زمان، تقتضي ان تزيد نسبة الرجال على النساء نسبة قليلة. بسبب مقتل العديد من الرجال في كل معركة. خُذ على سبيل المثال: معارك الجمل وصفين والنهروان حيث قُتل فيها عشرات الألوف. والحروب الضخمة في التأريخ حيث قُتل الملايين فيها. والحروب العالمية الحديثة حصدت ارواح عشرات الملايين من الرجال. فزيادة عدد النساء وقلة الرجال يستدعي حكم التعدد.

2- ان الزواج في ظروف كنتلك يُعيد الأمل الى المرأة بامكانية الحصول على حياة هانئة مع زوج يعترف به المجتمع. وذلك الأمل يبني تماسكاً في الحياة الاجتماعية الكلية للمجتمع الاسلامي.

3- ان شروط الحياة الاجتماعية وكمية الغذاء المستهلك وشروط الحياة الصحية والنفسية ستكون افضل في اسرة كبيرة تجمع عدداً أكبر من الافراد، خصوصاً اذا كان على رأسها ولي مدبر حكيم كالامام (ع). فالإيتام يشعرون بأن لهم من يقوم مقام الاب، والارملة تشعر ان لديها زوجاً، والمطلقة تشعر ان شخصيتها المعنوية قد عادت الى وضعها الطبيعي، وهكذا.

4- ان التعاون المفترض بين الزوجات لاداء الاعمال البيتية يرفع كاهل تلك الاعمال عن كتف واحد ويوزعها على عدة نساء. وعندها يكون توزيع الاعمال والتربية المنزلية عملية جماعية وليست عملية فردية يعجز عنها الفرد. وقد لاحظنا احتياج فاطمة الزهراء (ع) الى من يخدمها لان الاعمال المنزلية كانت شاقة، خصوصاً وان وسائل الخدمات كانت وسائل بدائية بالمقارنة معها اليوم. فكانوا ينقلون الماء بالقرب من النهر، وكانوا يجمعون الحطب للطهي والتدفئة، وكانوا يطحنون الشعير ويعجنونه لخبزه، وهكذا.

5- ان مشكلة وجود الارامل والمطلقات اللاتي شخوئن الحظ في الزواج من رجل اعزب مشكلة اجتماعية تسبب قهراً واحباطاً نفسياً للمرأة. مع ان هناك حاجات لا يقضيها الا الرجل. فتعدد الزوجات يحل تلك المشكلة حلاً جذرياً.

أ- الاقتداء برسول الله (ص):

وقد جمع رسول الله (ص) عدداً من الزوجات. ولا بد من المرور على موضوع زيجات النبي (ص) من اجل فهم مغزى تعدد الزوجات عند علي (ع).

لقد تزوج رسول الله (ص) بخديجة (رض) وعاش معها نيفاً وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة بعد نبوته قبل الهجرة من مكة الى المدينة.

وبعد الهجرة الى المدينة تزوج بعدد من النساء منهن البكر ومنهن الثيب، ومنهن اليافعة ومنهن العجوز. فقد بنى بالثيب مثل ام سلمة بعد ان تزوج بكرةً مثل عائشة . وبنى بالعجوز مثل زينب بنت جحش وسنها يومئذ يربو على الخمسين بعد ان تزوج شابة مثل ام حبيبة.

وتذكر كتب السيرة انه تزوج بعضاً منهن للقوة والعضد، وبعضاً لاستمالة القلوب والتوقي من الشر، وبعضاً للانفاق عليهن وادارة معاشهن حتى تكون سنة جارية بين المؤمنين في حفظ الارامل والمطلقات والمسلمات من الفقر والحاجة والمسكنة، وبعضاً لتثبيت حكم شرعي مثل تزوجه زينب بنت جحش حيث كانت زوجة لزيد بن حارثة الذي كان يدعى ابن رسول الله (ص) على نحو النبي فطلقها زيد وتزوجها النبي (ص) من اجل ابطال حكم جاهلي يقول بأن زوجة المدعو ابناً عندهم كزوجة الابن من الصلب.

وتزوج النبي (ص) لأول مرة بعد وفاة خديجة بسودة بنت زمعة وقد توفي عنها زوجها بعد رجوعه من الحبشة. ولو رجعت سودة _ وكانت مؤمنة مهاجرة _ الى اهلها وهم يومئذ كفار لفتنوها بالكفر.

وتزوج زينب بنت خزيمة _ وكانت تسمى بأُم المساكين لكثرة برّها بالفقراء _ بعد مقتل زوجها عبد الله بن جحش في أحد. فكان زواجه اياها تكريماً لها وحفظاً لماء وجهها.

وتزوج بأُم سلمة زوجة عبد الله ابي سلمة ابن عمه النبي (ص) وأخيه من الرضاعة، وهو اول من هاجر الى الحبشة. وكانت ذات دين وزهد وفضل، وكانت كبيرة في السن وذات ايتام. فلما توفي عنها زوجها تزوجها النبي (ص).

وتزوج بصفية بنت حيي بن اخطب سيد بني النضير قُتل زوجها يوم خيبر وقُتل أبوها مع بني قريظة. وقد اصطفاها رسول الله (ص) من سبايا خيبر وأعتقها وتزوجها فوصل سببه ببني اسرائيل.

وتزوج بجويرية «برة بنت الحارث» سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق. وقد أسّر المسلمون منهم مائتي بيت من النساء والذراري. وعندما تزوجها رسول الله (ص) قال المسلمون هؤلاء أصهار رسول الله (ص) لا ينبغي اسرهم واعتقوهم جميعاً. فأسلم بنو المصطلق بذلك. وكان لذلك تأثير عظيم على العرب.

ثم تزوج بميمونة «برّة بنت الحارث الهلالية» وهي التي وهبت نفسها للنبي (ص) بعد وفاة زوجها الثاني. وقد نزل فيها القرآن.

وتزوج بأُم حبيبة «رملة بنت ابي سفيان» وكانت زوجة عبيد الله بن جحش الذي هاجر معها الى الحبشة وتنصّر هناك بينما ثبتت هي على الاسلام. وكان ابوها أبو سفيان يؤلّب الناس على النبي (ص) ويجيش الجيوش على الاسلام. فتزوجها النبي (ص) وأحصنها. وتزوج بحفصة بنت عمر بعد مقتل زوجها خنيس بن حذافة بيدر، وبقيت ارملة. ثم تزوج بعائشة بنت ابي بكر وهي بكر.

وقد خيّر (ص) نساته بين التمتع والسراح الجميل «وهو الطلاق» إن كنّ يردن الدنيا وزينتها، وبين الزهد في الدنيا وترك التزين ان كنّ يردن الله ورسوله والدار الآخرة كما ورد في القرآن الحكيم: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِحْكِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)⁸¹. وهكذا كان لتعدد الزوجات بُعد اجتماعي وديني عظيم. وقد سار امير المؤمنين (ع) على منهج مشابه لمنهج رسول الله (ص). فتزوج الاماء والاربع.

ب- زوجات امير المؤمنين (ع):

تزوج امير المؤمنين (ع) بنساء شتى أغلبهنّ من الارامل والمطلقات، أمثال: أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي، وأم حبيبة بنت ربيعة، وخولة بنت جعفر بن قيس الحنفية، وأم البنين بنت حزام بن خالد الكلابية، ولىلى بنت مسعود الدارمية، وأسماء بنت عميس الخثعمية، وأمّامة بنت ابي العاص. ومن ملاحظة تلك الاسماء نلمس مصداقية امير المؤمنين (ع) حيث يقول: أنا أبو الارامل والايتام. وقد تأسى برسول الله (ص)، من حيث تثبيت السبب الزوجي بين القبائل. ولكن المؤسف ان التأريخ لم يحتفظ لنا بلائحة تفصيلية عن وضع زوجاته (ع) فيما يتعلّق بالفقر والاملاق، كما احتفظ بزوجات رسول الله (ص).

(⁸¹) سورة الاحزاب: آية 29.